أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفيل

مكية وهي ست آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

نزلت في مكة. قال ابن عباس إنها مكية (فتح البيان)، كما قال المفسرون بلا خلاف إنها مكية. وقد اعتبرها المستشرقون مكية أيضا حيث يرى المستشرق الألماني الشهير "نولدكه" أنها من أوائل السور نزولا؛ حيث نزلت في زمن مقارب لنزول سورة التكاثر. (تفسير القرآن للقسيس "ويري")

الترابط:

إن أول ما يربط هذه السورة بما قبلها هو ما ذكرتُه من قبل عند تفسير السور السابقة، حيث بينتُ أن جميع السور الأخيرة من القرآن الكريم –إلا بضع منها– تتحدث بالتناوب عن فترة الإسلام الأُولى، ثم عن الزمن الأخير؛ فسورةٌ منها تتحدث عن الفترة الأولى للإسلام خاصة، بينما تتحدث السورة التي تليها عن الفترة الأخيرة للإسلام خاصةً. ولا أعني من ذلك أن السورة التي تتحدث عن الفترة الأولى للإسلام لا تتحدث عن الفترة الأخيرة للإسلام مطلقًا، كما لا أعني أن السورة التي تتحدث عن فترة الإسلام الأخيرة لا تتحدث عن فترته الأولى مطلقًا، بل الحق أنهما تحتويان على ذكر الفترتين عموما، بل في بعض الأحيان تذكرهما بكل شدّة، ولكن هذا الذكر ليس هو الهدف الأول، إنما الهدف الأول هو التركيز على إحدى الفترتين خاصة. ومن هذا المنطلق فإن سورة الفيل تتحدث عن الزمن الأخير للإسلام خاصة، مع أنها تتحدث عن فترة الإسلام الأولى أيضا. إن هدفها الأول هو الإشارة إلى حالة الإسلام في الزمن الأخير.

أما علاقتها القريبة بالسورة السابقة فهي أن الله تعالى قال في السورة السابقة ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾.. أي أن الذين يعيبون الآخرين ويؤذونهم ويضطهدونهم مزهوّين بما عندهم من مال وثراء؛ سيُدمَّرون بالعذاب ويبادون. ومع أن هذا الأمر يبدو عامًا كما توهم كلمة (كُلّ) في قوله تعالى ﴿وَيْلٌ **لِكُلِّ** هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾، لكنه يشير في المقام الأول إلى أعداء رسول الله ﷺ. لقد كان أعداؤه المعاصرون له ذوي مال وثراء وتجارات وعقارات وسيادة ومناصب، مما جعلهم يستكبرون ويظنون أن قوتهم وأموالهم ستمنعهم؛ فلن يُهزَموا على يد محمد وأصحابه، فيردّ الله عليهم بأنكم مخطئون في هذا الظن. إن محمدًا رسول الله ﷺ سينتصر عليكم حتما، ولن يكون مصيركم أنتم الذين تؤذون الفقراء مغرورين بأموالكم وسيادتكم إلا الخيبة والفشل. باختصار، إن سورة الفيل تنبئ أن هؤلاء القوم سيكابدون آلامًا كبيرة وسيبادون إبادة تامة، ويكون مصيرهم مؤلما جدًّا.

وهنا ينشأ سؤال طبيعي: كيف يحدث هذا؟ فمن غير المنطقي أن يصاب هؤلاء الكبار ذوو المال والسؤدد والعقل والتدبير والقوة بالهزيمة على أيدي الضعفاء، وأن ينتصر عليهم جيرانهم الذين هم هدف لاضطهادهم. وردًّا على هذا الاعتراض الطبيعي قد ذكر الله تعالى في هذه السورة حادثًا لا يصدّقه المنطق الظاهر، لأن كل ما وقع فيه إنما وقع بقَدر من الله تعالى، وكانت النتيجة خلاف ما يحكم به العقل تماما، فلم تملك الدنيا إلا الاعتراف أنْ ليس كل ما يقع في الدنيا يقبله العقل دائما، بل قد تقع فيها أحداث تبدو خلاف العقل، ومثاله واقعة أصحاب الفيل. فقد هجم على "مكة" ملِكٌ ذو قوة ومنعة ومملكة كبيرة منظَّمة، لكنه مُني بالهزيمة -كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقا- بينما انتصر عليه الذين لم يملكوا قوة ولا حيلة.

لا جرم أن الهُمَزة واللُّمَزة يوجدون في كل مكان، ولكن المراد الأول منهم هنا أهلُ مكة، فهم الذين قال الله فيهم ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾(الهُمَزة:٣-٤).. أي أنهم يحسبون أنهم سينتصرون على محمد بقوتهم وأموالهم وثروتهم، فيرد الله تعالى عليهم: يا أهل مكة لقد وقع في قريتكم هذه

حادث يؤكد ما نقول. لقد غرَّكم أنكم أكثر قوة من محمد رسول الله، فهلّا فكرتم في مصير قوم كانوا أكبر منكم قوة وسيادة، فجاءوا مغترين بقوتهم لمهاجمة مكة، فألقيتم أمامهم السلاح من دون مقاومة، ولكن كان من المقدر أن تكون مكة عاصمةً لحبيب الله تعالى، إذ كانت أرضًا حبيبة ومقدسة عند الله، فأفشل الله هذا العدو في هدفه ، وخيّبه في مكائده، فكانت مكة هي الغالبة في نهاية المطاف، ومُنِيَ ذلك العدو القوي بالخيبة والفشل.

لقد وقع هذا أمام أعينكم. كان انتصاركم على هذا العدو محالاً عقليا، ولكن الله نفذ مشيئة إرادته. ألا تدركون بعد رؤية هذا المثال كيف ينتصر محمد رسول الله الذي لا يملك مالاً ولا قوةً ولا أعوانًا، وكيف تنهزمون أمامه مع ثرائكم وقوتكم وأعوانكم؟ فكِّروا في واقعة أصحاب الفيل لتعلموا أن الله تعالى يريد أن يُري آية قدرته القوية هذه المرة أيضا كما فعل من قبل، وسوف يجعلكم مغلوبين أمام محمد رسول الله ﷺ.

والعلاقة الثانية لهذه السورة بالتي قبلها أنه قد أشير فيها –كدليلٍ بالأَوْلى– إلى أن الكعبة ليست مقصودة بحد ذاتها، إنما هي علامة للمبعوث الرباني الموعود؛ إذ كان من المقدَّر أن يُبعث إنسان عظيم لهداية الناس وفقًا لدعاء إبراهيم عليه السلام، ولتحقيق هذا الهدف كانت هناك حاجة لمركز، فجعل الله هذا المقام مقدسًا ومرجعًا للناس لهذا الغرض، ولكنه ليس مقصودا بحد ذاته في كل حال، بل المقصود الحقيقي هو ذلك المبعوث الذي كان سيظهر نتيجة دعاء إبراهيم عليه السلام، والذي كان من مهماته –كما قال الله ﷻ – أنه ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. هذا المقام كان مجرد علامة للمقصود الحقيقي الذي سيبعث هناك. والتدبر يكشف لنا أن لا أهمية للأمور الشكلية، إنما الأهم ما هو وراءها والدافع لها؛ فمن الأحداث الطريفة الشهيرة أن الشيخ "سعدي" كان مرّةً في سفر، فأقام في خانٍ، فأقام أحدُ عِلْية القوم مأدبةً وأعلن أن كل المسافرين المقيمين في الخان مدعوون للطعام عنده. فقال صاحب الخان للشيخ "سعدي" بأن لا طعام عنده اليوم لأن فلانا من الزعماء قد أقام مأدبة وأنتم مدعوون إليها. كان "سعدي"

يلبس لباسًا بسيطا، ولكنه كان إنسانًا عظيمًا شهيرا يحضر بلاط الملوك، وحيثما ذهب عظَّمه الناس وأجلسوه في الصدارة، فلما حضر بيت الزعيم جلس قريبا من مكان الصدارة دون أن يخطر بباله أن أهل هذه المنطقة يجهلونه لعدم مجيئه إليهم من قبل. وبينما هو جالس هناك إذ حضر أحدُ عِلْية القوم، فتوجّهَ أحد خدم البيت إلى "سعدي" وقال له أرجو أن تترك هذا المكان لهذا الزعيم، فترك مكانه وجلس في مكان آخر. وبعد برهة جاء زعيم آخر، فذهب الخدم إلى "سعدي" وطلبوا منه أن يتأخر أكثر. ولم يزل الزعماء يأتون و"سعدي" يتأخر حتى وصل إلى مكان الأحذية. ولما حضر الطعام تناولَه وذهب. وكان هذا الزعيم قد أعلن أن هذه المأدبة لثلاثة أيام. وكان الملوك الكبار –الذين كان "سعدي" معتادا حضورَ بلاطهم ومجالستهم– قد خلعوا عليه خلعًا ثمينة، فلما أراد حضور المأدبة في اليوم الثاني لبس خلعة ثمينة مرصعة بالآلئ واليواقيت، ووصل إلى بيت الزعيم وجلس في الخلف عند الباب، فجاء أحد الخدم وقال له: حضْرتُك جالس هنا! أرجوك أن تأتي وتجلس في الصفوف الأمامية، فتقدّمَ قليلا. ثم أتاه خادم آخر وقال: حضرة الشيخ، كيف تجلس هنا! أرجوك أن تتقدم إلى المقاعد الأمامية، فتقدم قليلا. ثم جاءه خادم آخر وقال: هذا المكان لا يليق بحضرتكم، أرجو أن تجلس قريبا من صدر المجلس. ولما حضر صاحب البيت بنفسه، ورأى لباس الشيخ "سعدي" ظنّه وزيرًا أو أحد كبار رجال المملكة، فتقدم إليه وقال: لماذا تهينني حضرة الشيخ؟ أرجوك أن تتفضل وتجلس في صدر المجلس. فأجلس الشيخَ في المكان الذي كان سيجلس فيه بنفسه. فلما حضر الطعام غمّس الشيخ "سعدي" طرف خلعته في إناء الطعام، فظنّه القوم مجنونًا، وقال له صاحب البيت: ماذا تفعل يا حضرة الشيخ؟ فأجاب: حضرة الأمير، هذه المأدبة ليست لي وإنما لخلعتي، فلذلك أُطعِمها. قال: لم أفهم قصدك؟ أجاب الشيخ: لقد حضرتُ المأدبة بالأمس، ولكنهم دفعوني إلى مكان الأحذية، أما اليوم فجلستُ عند الأحذية، ولكنهم لم يزالوا يقدّمونني حتى أجلسوني في صدر المجلس. فما دمتُ أنا نفس الشخص الذي حضر بالأمس، فلماذا عوملت اليوم معاملة أخرى يا ترى؟ أليس السبب أنني لبست اليوم هذه الخلعة التي لم ألبسها

بالأمس، فثبت أن المأدبة لخلعتي لا لي. لقد كان "سعدي" زاهدًا في متع الدنيا، فلم يبالِ بتلف خلعته. فأخذ صاحب البيت يعتذر إليه في ندم وقال: لقد أخطأْنا فاعذرْنا.

مع طرافة هذا الحادث، فالحقيقة أن الخلعة لم تكن تساوي شيئًا مقابل "سعدي". لقد ظن الأغبياء أن الخلعة هي سبب عظمة "سعدي"، لكن العقلاء كانوا يدركون أن الخلعة إنما نالت العزّة لأن "سعدي" لابسها، وليس العكس. وبالمثل لم تكن الكعبة في ذاتها معظَّمة، بل نالت هذا العز والشرف لأن إبراهيم عليه السلام رفع قواعدها كي يتخذها المبعوث الرباني الموعود في كل الأديان – عند ظهوره– قاعدة له، وهكذا جعل الله الكعبة مركزًا للاتحاد ومرجعًا لأمم العالم. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى للكافرين هنا: عليكم أن تفكّروا في دعوى محمد. إنما دعواه أنه ذلك الموعود الذي من أجل ظهوره دعا إبراهيم عليه السلام ربه عند رفع قواعد الكعبة. تقولون إن محمدًا فقير ضعيف لا يملك قوة ولا ثروة، فكيف يقف في وجهنا؟ فهلا فكرتم فيما إذا كانت الكعبة أكثر قيمة أم محمد؟ إن الكعبة لم تُرفع أسسها إلا لكي يظهر محمد رسول الله، إذ قال إبراهيم في الدعاء الذي قام به عند رفع قواعدها صراحة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(البقرة:١٣٠). فثبت أن الكعبة لم تؤسَّس إلا ليظهر فيها ذلك النبيّ الذي سيوجِّه رسالته إلى الإنسانية كلها. وإذا كان الله تعالى قد أرى آية تدمير أبرهة وجنوده مِن أجل الكعبة التي هي علامة لظهور ذلك النبي؛ فيمكنكم أن تدركوا مِن هنا كم ستكون عظيمةً الآيةُ التي يُريها من أجل ذلك النبي الذي هو في حد ذاته مقصود الكعبة. ما دام الله تعالى قد دمّر أصحاب الفيل من أجل هذه العلامة، فيمكن أن تتصوروا مدى غيرته من أجل النبيّ الذي هو الغاية من وراء هذه العلامة، وأنتم يا أهل مكة لا تملكون ما كان أصحاب الفيل يملكونه من قوة. وكأن الله تعالى يقول لأهل مكة إنكم لا تساوون شيئا إزاء أصحاب الفيل، وما دام الله تعالى قد حمى الكعبة وإياكم من هجومهم مع كونكم

أضعف منهم قوة، فهل تظنون أنه لن يحمي محمدا من هجومكم وأنتم أحقر شأنا من أصحاب الفيل؟

والعلاقة الثالثة القريبة لهذه السورة بالتي قبلها تكمن في أن الله تعالى قد بين هنا أن حماية الكعبة كان -بلا شك- أحد أسباب دمار أصحاب الفيل، إلا أن حماية محمد كان هو السبب الحقيقي والهدف الأهم من وراء هذا الحادث. ذلك أنه يكون وراء أمرٍ ما أكثر من هدف أحيانًا؛ فمثلا عندما تقيم الدولة مأدبة على شرف وزراء دولة أخرى، فإنه يحضرها رئيس الوزراء ووزير الخارجية ووزير التعليم ووزير المالية وغيرهم، مع أنها تقام في الواقع على شرف رئيس الوزراء قبل غيره. كذلك فلا شك أن الله تعالى قد أنقذ أهل مكة حمايةً للكعبة، إلا أنه فعل ذلك تكريمًا لمحمد رسول الله ﷺ -الذي كان سيولد بعد أيام، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقا- أكثر منه حمايةً للكعبة. باختصار، يقول الله تعالى هنا للكافرين: كيف تستغربون من انتصار محمد عليكم، مع أننا قد دمّرنا أصحاب الفيل من أجله حتى قبل ولادته؟ فهل تظنون أننا سنتخلى عنه بعد ولادته مع أننا قد أرينا هذه الآية العظيمة من أجله حتى قبل ولادته؟ فبوسعكم أن تدركوا كم سيعمل الله تعالى لإرساء شرف هذا الإنسان بعد ولادته وقد أرى الآيات من أجله حتى قبل ولادته. فحَذارِ ثم حذارِ من عداوته حتى لا تفسدوا عاقبتكم بعدائه؟

والعلاقة القريبة لهذه السورة بالتي قبلها هي أن الله تعالى قد ذكر في السورة السابقة أن العدو يتبجح بأنه يملك قوة ومالا وأن ماله سيخلّده، فردّ الله عليه في هذه السورة بذكر حادث أصحاب الفيل وقال بأنهم كانوا أكثر منك مالا وقوة.. ومع ذلك دمّرهم الله تدميرًا. لقد أخطأت في ظنك أنك لن تهلك أبدا لأنك تملك أموالا وقوة. كلا، بل إذا وقفت في وجه الله تعالى فلا بد أن يمزّقك تمزيقًا؛ إذ لا قِبل لأحد أمام سيفه، صغيرا كان أو كبيرا، بل الجميع يهلكون ويُبادون. إن هؤلاء قد شنّوا الهجوم على مكة حمايةً لكنيستهم التي دعوا المعماريين من أقاصي البلدان ليبنوها بأحجار المرمر ويرصّعوها بالذهب والأحجار الكريمة الثمينة، بحيث لا تساوي الكعبة إزاء تلك الكنيسة شيئًا في بادئ الرأي. فإذا كنتم يا أهل مكة

تتباهوْن بأموالكم فاعلموا أن أصحاب تلك الكنيسة كانوا أكثر منكم مالاً، ولكنهم لما حاربوا الله تعالى أهلكهم عن بكرة أبيهم.

والعلاقة الخامسة القريبة لهذه السورة بالتي قبلها أن الله تعالى قد قال في السورة السابقة ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾(الهُمزة:٥-١٠). وقد بينتُ من قبل أن هذه الآيات تتحدث عن عذاب الدنيا خاصة، ولكنها تعني في الظاهر أن الكافرين يعذَّبون في الآخرة على هذا النحو، فكانوا يقولون عند سماعها وما على شاكلتها من الآيات بأنك تخدع الناس بتخويفهم من عذاب الآخرة، فمن الذي قد رأى الآخرة؟ إن ما تقوله لا يمكن التأكد منه في هذه الدنيا، فكيف نصدقك ونحن لا نؤمن بالآخرة؟ فمثلُهم كمثل الكتّاب الأوروبيين الذين يعترضون اليوم بأن القرآن قد خوّف الناس من أنواع عذاب الآخرة لإدخالهم في الإسلام (موسوعة الأديان تحت كلمة: Ethics and Morality). وللرد عليهم، كلما تحدث القرآن عن عذاب الآخرة ونِعَمِها، شفَعه بذكر عذاب الدنيا ونِعمها، وكأنه قال: تقولون كيف نصدق عذاب الآخرة ونعمها ونتائجها، إذ لم يرها أحد في الدنيا؟ فأجيب: حيث إنكم لا تستطيعون إنكار أمور الدنيا، فنذكر عذابَ الآخرة ونِعمها مقرونًا بأنباء تتعلق بهذه الدنيا وهي تبدو مستحيلة في الظروف الراهنة تماما، فإذا وقعت أمام أعينكم فاعلموا أن الله الذي جعل هذا المستحيل ممكنًا لقادرٌ على تحقيق ما يخبركم من عذاب الآخرة. ومن أجل ذلك نجد أن القرآن يذكر - عادةً- عذاب الآخرة ونِعَمها مقرونًا بعذاب الدنيا ونعمها ليشكّل حصول عذاب الدنيا ونعمها دليلاً على وقوع عذاب الآخرة ونعمها بحيث لا يجرؤ الكفار على إنكارها.

باختصار، لقد رد الله على اعتراض الكفار وقال: لا شك أن عذاب الآخرة يبدو لكم مخالفا للعقل ومستحيلا، ولكن دمار أصحاب الفيل أيضا كان يبدو مستحيلا بنفس المستوى. لقد كان هجوم أبرهة وجنوده شديدا بحيث وجد العرب أنفسهم بلا حول ولا قوة أمامهم فاستسلموا أمامهم، مدركين أن لا قِبل لهم به، ومع ذلك دمّرهم الله تعالى بأسباب لا نظير لها في العالم. عليكم أن تمعنوا النظر في

هذا الحادث وتفكروا لماذا وكيف دمر الله أبرهة وجنوده. إنما أهلكه الله وجنوده لأن إبراهيم عليه السلام كان قد دعا الله تعالى فاستجاب الله دعاءه ووعده أنه سيجعل هذا البلد آمنا ويحميه من هجمات الأعداء. لا شك أن الناس في زمن إبراهيم قالوا إن ما تتنبأ به هو مجرّد دعوى، فما الدليل على أن مكة ستكون بلدا آمنا؟ إن ما تقوله يتعلق بالمستقبل ولن تكون ولا نحن على قيد الحياة عندها، فما الفائدة من هذا النبأ؟ ولكن، لما حان تحقق هذا النبأ الإبراهيمي رأى الراءون بأن الله تعالى قد حمى بيته الحرام من هجوم عدو قوي جاء بجيوشه الجرّارة، جاعلاً المستحيل ممكنا.

عندما أدلى إبراهيم عليه السلام بهذا النبأ لم يكن هناك أيّ مدينة باسم مكة. لقد ترك زوجته وابنه الصغير الرضيع في ذلك المكان القفر حبًا لله وابتغاء مرضاته. لم تكن هناك عين ماء باسم زمزم، بل كان المكان واديا غير ذي زرع؛ لا ماء فيه ولا طعام. لقد ترك ابراهيم عليه السلام معهما قربة ماء وكيس تمر، ثم غادرهما بأمر الله تعالى. إنه لم يخبر زوجتَه أنه يتركهما هنالك وحيدين بأمر الله تعالى، مخافة أن لا تتحمل أمومتها صدمة هذا الخبر. وعندما قفل إبراهيم عليه السلام عائدا؛ أخذ يلتفت للوراء مرة بعد أخرى نتيجة الحب الطبيعي المغروس في الإنسان نحو زوجته وولده. لقد تحدث مع زوجته في البداية حديثًا لم تُدرك منه بأنه تاركهما هنالك وحيدين، بل يبدو أنه ترَكهما بحيث خُيّل لها أنه خرج بحثًا عن الحطب والماء. ولكنه لم يطق فراقهما وأخذ يلتفت إليهما بعد خطوات من غلبة محبتهما. فلما رأت "هاجر" ذلك أدركت أنها لحظة الفراق، وأنه تاركهما هنالك نهائيًا؛ فالرقة بادية في وجهه والدموع جارية في مقلتيه. فهبّتْ فزِعةً ولحقت به قائلة: هل تودّعنا؟ فلم يستطع أن يردّ عليها من غلبة الرقة وبَحَّ صوتُه، فولّى وجهه عنها، فأيقنت أنه يتركهما للأبد. ولما كانت ضَرّةُ هاجرَ قد تشاجرت معها من قبل، فظنت أنه يتركها من أجل ضَرّتها. ثم فكّرت أنه نبي الله، فلعلّ الله أمره بهذا، فقالت: آللهُ أمَرك بهذا؟ فلم يستطع إبراهيم عليه السلام أن يجيبها بلسانه من غلبة الرقة وإنما حرّك رأسه بالإيجاب، فقالت: إذا كان الله تعالى قد أمرك بهذا فلن يضيّعنا، ويمكنك أن ترحل. (جامع البيان)

وكما قلت، عندما ترك إبراهيم زوجته وابنه في ذلك المكان لم يكن به بلدة باسم مكة، ولا شيء للأكل والشرب، فترك عندهما قربة ماء وكيس تمر، وذهبَ. وقد تركهما لأن الله تعالى كان قد أمره في الرؤيا بذبح ابنه في سبيله. إنني على يقين كامل – وقد بينتُ مرارا وأستطيع أن أثبت من القرآن الكريم– أن رؤياه هذه لم تكن تعني الذبح الظاهري، بل المراد أنه سيؤمر في وقت من الأوقات بترك ابنه إسماعيل في واد غير ذي زرع لا ماء فيه للشرب ولا غلال للطعام، بل هي بريةٌ مخوّفة، فيمكن أن يأتي ذئب في أي وقت ويفترسه. كان مكانًا لا بيت فيه للإقامة، بل لا يوجد حوله أثر للعمران لمئات الأميال. لم يكن تركُ إبراهيم ابنَه هنالك أقلَّ من القتل، بل كان أشدّ منه. ذلك أن القتيل يموت في دقيقة، أما ابنه فقد يموت هنالك في أيامٍ موتًا بطيئًا وهو يعاني ويلات الجوع والعطش. لذلك فأرى أن رؤيا إبراهيم هذه إنما كانت إشارة إلى أنه سيؤمر في يوم من الأيام أن يذهب بإسماعيل ويتركه في تلك البرية، ذلك لأن الله تعالى أراد بناء بيته في مكان خال من المغريات، بل من الطعام والشراب والإقامة، لكي تبقى تلك البقعة من الأرض محفوظة من أسباب الترف المادي الذي يتمتع به الآخرون حولها من العالم، فاختار هذا القفر لبيته ليطوّره وليجعله قرية ينشأ فيها قوم يبعث فيهم نبيَّه الأخير لهداية العالم. لا شك أن العرب كانوا غارقين في عبادة الأصنام وإهمال الدين وقلة الحياء، ومع ذلك كانت معادن الإنسانية ومُثُلها محفوظة فيهم بما لا مثيل له عند أمة أخرى. وليس ذلك إلا لأن أهل مكة كانوا يعيشون في برية منعزلين عن باقي العالم ومحرومين من أسباب الرخاء والترف. لا ريب أن بعضهم كانوا ذوي ثروة، ولكن لم تكن ثروتهم إزاء ثروة باقي أهل الدنيا إلا كمائة أو مائتي ألف روبية يملكها أحد من جماعتنا اليوم، ويظن أنه أغنى أغنياء العالم، مع أنه يوجد في أوروبا أصحاب مصانع يملك عُمّالها أكثرَ بكثير مما يملكه هذا الأحمدي. فلم تكن ثروة أهل مكة تساوي شيئًا مقابل ثراء باقي العالم المعلوم. والحق أن كل ما حصل فإنما حصل بحكمة الله تعالى الذي أراد أن يُسكِن في مكة قوما يعيشون منعزلين عن العالم الثري ورخائه محافظين على معادن الإنسانية. والحق أن من أكبر وسائل نجاح النبي

ﷺ أنه وجد هذه الأمة العربية التي ضربت في التضحية والإيثار أمثلة لا نظير لها على وجه البسيطة، ولقد ضحّوا بأنفسهم بما لم يسبق له مثيل في العالم، فتسببوا في انتشار الإسلام وازدهاره.

باختصار، لم يكن إبراهيم عليه السلام يملك قوة ولا قدرة عندما أسكنَ ذريته هناك وعندما رفع قواعد الكعبة. فمتى كان عليه السلام يستطيع أن يجمع الناس هنالك حين أخبر بأن الله تعالى سيبعث هناك من ذريته نبيًا يصبح مرجعا للخلائق، وحين دعا ربه قائلا: رب، اجعل الناس يأتوا هنا من كل أنحاء العالم ويحجّوا بيتك ويقضوا أوقاتهم في عبادتك وذِكرك ويرفعوا اسمك ويسبحوك ويحمدوك. وأنَّى له أن يجلب الآخرين إلى ذلك المكان وقد ترك زوجته وابنه هنالك ليموتا جوعا وعطشا؟ ومع ذلك ترى كيف خلق الله أسباب عمران مكة، وكيف حقق دعاءه بشكل مذهل.

رجع إبراهيم عليه السلام ونفد الماء عند هاجر بعد أيام فأخذ ابنها يتقلب من شدة العطش. لم تستطع الأم رؤية ابنها المضطرب فصعدت الصفا والمروةَ علّها تجد وراءهما إنسانًا يدبر لهما الماء أو يدلّها على مكانه. ولكن أنَّى لها أن تجد هنالك إنسانًا؟ فلما بلغ قلقها الذروة سمعتْ صوتا، فقالت بصوت عالٍ: يا عبدَ الله، أيًّا كنتَ، فأناشدك بالله أن تدلّني على الماء إن كنتَ تعرف مكانه، فابني يموت ظمأً. فأجابها الهاتف: يا هاجر، إنما أنا ملاكٌ، فارجعي وانظري فإن الله تعالى قد فجّر ينبوعًا عند قدمَي إسماعيل. فرجعتْ ووجدت بالفعل أن هناك نبعًا قد تفجر من الأرض. وهذا الينبوع هو الذي يسمّى زمزم، ومن أجل ذلك يتبرك الناس بمائه ويأخذونه إلى بلاد نائية، بل بعضهم يأخذون معهم أكفانهم ويبلّلونها بمائه.

ثم مرت بالقرب مِن هاجر قبيلة من بني "جُرْهم"، وكانوا يمرون بذلك المكان أثناء أسفارهم التجارية إلى اليمن، وكان بعضهم يموت عطشا لعدم الماء، فلما وجدوا الماء هنالك رغبوا في اتخاذ المكان استراحة لهم خلال سفرهم، فقال رئيسهم لهاجر: أتسمحين لنا بالإقامة هنا، ولسوف نعيش رعايا لكِ؟ فقبلتْ هاجر التماسه، وصار هذا المكان استراحة لهم. وأتى آخرون من "جُرْهُم" وأصبح المكان قرية بمرور الأيام. ثم تزوج إسماعيل عليه السلام بنتًا من هذه القبيلة. ما كان لإسماعيل أن يجد

زوجة في ذلك القفر الذي لم يكن حوله آثار عمران لمئات الأميال. إن الله هو الذي جعل "جرهم" يعمرون هنالك قرية، وهكذا وجد إسماعيل زوجة وبدأ نسله. (جامع البيان)

مَن كان يستطيع القول عندما عمَّر إبراهيم عليه السلام بيت الله هنالك أن هذا المكان سيصبح مدينة في يوم من الأيام؟ ومن ذا الذي كان يستطيع أن يقول عندها إن الناس سيأتون هنالك ويقضون أوقاتهم في عبادة الله؟ ومن كان يستطيع أن يقول عندها أن هذه المدينة ستكون آمنةً دائما؟ وأن الله تعالى سوف يجعلها سبب أمنٍ للناس؟ كل هذه الأمور كانت ضربًا من المحال نظرًا إلى الظروف السائدة آنذاك. ما كان لأحد أن يقول إن مكة ستصبح مدينة، وما كان لأحد أن يقول إنها ستبقى محميّة، ولكن عند هجوم أصحاب الفيل حقّق الله تعالى ما أنبأ به إبراهيم عليه السلام بأن الله تعالى سيجعل مكة بلدًا آمنًا، وأنها ستظل محفوظة من هجمات الأعداء.

السؤال الذي يفرض نفسه هنا: من ذا الذي منع أصحاب الفيل من الهجوم على مكة حتى ذلك الوقت؟ أي قوة ظلت حاميةً مكةَ تلك الفترة الطويلة؟ فهناك بيْن إبراهيم عليه السلام وحادث أصحاب الفيل فاصل زمني يبلغ ٢٨٠٠ سنة، أو ٢٢٠٠ سنة بحسب بعض الروايات، وخلال هذه الفترة الطويلة لم يشنّ أحد هجومًا على مكة، و لم يرِد أحد هدم الكعبة. لم يرغب في ذلك يهودي ولا نصراني ولا أية دولة من دول العالم. لقد حكمت عادٌ ثم ثمود في هذه الفترة الطويلة (أرض القرآن)، وكانت لهما دول عظيمة قوية، ولكن لم تفكّر أي منهما في الهجوم على الكعبة، ولكن لما قربت ولادة محمد رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول –سنة ٥٧٠ م – و لم يبق على ولادته إلا شهرانِ شنَّ أبرهة الهجوم في شهر محرم، فأرى الله تعالى هذه الآية العظيمة بتدمير أبرهة وجنوده. فعدمُ تفكير أحد في الهجوم على الكعبة هذا الزمن كله، ثم هجوم أبرهة عليها قبيل ولادة النبي محمد ﷺ كان دليلا على أن هذا الهجوم كان آخر هجمة من الشيطان للقضاء على ذلك المكان الذي كان من المقدر أن يظهر فيه ذلك الإنسان الذي كان ثمرة الدعاء الإبراهيمي تحقيقًا للنبوءة الإبراهيمية أمام العالم. لا جرم أن تحقُّق نبوءته في تلك الظروف غير المواتية، ولا

سيما قبيل ولادة النبي ﷺ، يدل على أن الله تعالى هو الذي كان وراء كل ما حدث.

لقد دعا إبراهيم عليه السلام صراحة قائلاً: رب، ابعثْ في ذريتي رسولاً يهدي العالم، كما سأل اللهَ تعالى أن يحمي الكعبة المشرفة. وبالفعل يتحقق الدعاءانِ في وقت واحد بكمال حكمة الله تعالى؛ إذ يهبّ هذا العدو لتدمير الكعبة في الشهر المحرم، وبعد شهرين يولد ذلك الإنسان الذي هو مصداق دعاء إبراهيم عليه السلام، بينما نرى أنه لم يهاجم الكعبةَ أحد خلال ٢٢٠٠ سنة، كما لم يقل أحد أنه مصداق دعاء إبراهيم عليه السلام. أمصادفةٌ هذا كله يا ترى؟ يمكن أن يقول العدو إن دعوى محمد (ﷺ) صدفة، ولكن هل يسعه أن يعتبر هجوم أبرهة على الكعبة صدفة أيضا؟ لا شك أن الشخص النزيه من التعصب لن يعتبر دعوى محمد ﷺ صدفة، كما لن يعتبر هجوم أبرهة صدفة، بل يعترف حتمًا أن كل ما حصل إنما حصل بمشيئة الله تعالى ووفق قراره الأزلي. كان تحقُّق هذه النبوءة مستحيلا – نظرًا إلى الظروف السائدة غير المواتية أصلا– وما كان لأحد أن يقول بناء على العقل إن هذه النبوءة تتحقق، ولكن الله تعالى حققها وجعل المستحيل ممكنا. فإذا كان وقوع مثل هذه المستحيلات ممكنا في الدنيا، فكيف لا تتحقق الأنباء الإلهية التي تتعلق بالآخرة؟ وإذا كان تحقق هذه الأنباء المتعلقة بهذه الدنيا ممكنًا، فكيف لا يمكن تحقّق الأنباء المتعلقة بالآخرة؟

باختصار، لقد ربط الله تعالى هذه السورة بقوله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ الوارد في السورة السابقة تفنيدًا لادّعاء الكفار، إذ قالوا كيف نصدّق الأنباء التي تتعلق بالآخرة، فقال الله تعالى: متى كان تحقُّق دعاء إبراهيم ممكنا؟ ومتى كانت نجاة إسماعيل من الموت ممكنة؟ ثم متى كان عمران الكعبة وتوجُّهُ العرب كلهم إليها ممكنا؟ ومتى كان ممكنًا أن لا يرغب العدو في الهجوم على الكعبة بجنوده وهدمها إلا بعد انقضاء ٢٨٠٠؟ ومتى كان تدمير هذا العدو ممكنا؟ ومتى كان ممكنا أن يولد بعد هلاك ذلك العدو بشهرين ذلك الشخص الذي كانت الكعبة قد عُمرت من أجل بعثته؟ فما دامت هذه المستحيلات قد صارت ممكنات، فكيف تعترضون

على الأنباء المتعلقة بالآخرة؟ إن الله الذي حقق هذه الأمور في الدنيا هو الذي سوف يحقق الأنباء المتعلقة بالآخرة أيضا.

باختصار، إن من أساليب القرآن الكريم أن يذكر أنباء الدنيا مقرونة بأنباء الآخرة، مثلما يذكر أخبار الجزاء والعقاب وأنباء التبشير والإنذار معًا، وذلك تقريبًا لها إلى الأذهان. فمثلاً إن من المستحيل أن يستوعب عقل الإنسان حقيقة الجنة والنار في الآخرة ما لم ير بأُمّ عينه تحقُّق الأنباء الإنذارية والتبشيرية المتعلقة بهذه الدنيا، وعندما يرى الأنباء المتعلقة بهذه الدنيا تتحقق؛ يوقن بالأنباء المتعلقة بالآخرة ويقول: ما دامت هذه الأمور التي كانت تبدو مستحيلة قد تحققت هنا، فلا بد أن تتحقق الأنباء المتعلقة بالآخرة أيضًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

التفسير: آية البسملة مشتركة بين جميع السور التي تستهلّ بها. وحسب بحثي فإن البسملة مفتاح لمضامين كل سورة؛ حيث بيّن الله تعالى فيها أمورا تنفتح بها مضامين السورة تلقائيا.

إن أكبر ما بيّنه الله تعالى في البسملة هو أن كل سورة قرآنية تحتوي على أمر غير عادي حتما؛ فإما هو أمر غير عادي من حيث العقيدة، بمعنى أن الناس يحملون عقائد بينما يقدّم القرآن الكريم عقيدة معارضة لما عندهم، مما يدفعهم إلى اعتبارها باطلة، أو هو غير عادي من حيث الأحداث المستقبلية، أي أنه يحتوي على نبوءة محيّرة، أو هو غير عادي من حيث الأخبار السابقة، أي أن التاريخ يقول شيئا، لكن القرآن لا يصدقه ويبين حقيقة الواقع، أو أن القرآن يذكر أمرًا غير عادي من حيث مخالفته للنواميس الطبيعية حسب تصوّر الناس، فيقولون إن القرآن قد أخطأ وخالف العلومَ. باختصار، لا بد أن يكون هناك أمر غير عادي في كل سورة، ولذلك قد بدأ الله تعالى كل سورة بقوله ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾.. أي أبدأُ باسم الله

الذي يهيئ الأسباب من دون جهد وسعي واستحقاق من العبد، والذي يجزيه على جهوده أفضل جزاء إذا ما اجتهد مستعينا بالأسباب التي خلقها. فكما أن الناس في الدنيا يقدِّمون أحيانًا بعضَ الكبار شاهدًا على ما يقال، كذلك قدّم الله نفسه شاهدًا على ما يقول قبل كل سورة. وعلى سبيل المثال، لم يرَ أحد منا الهلال أول أمس، ولكن لو قال أحد الأحمديين لغيره سيبدأ شهر الصيام غدًا، لردَّ عليه وقال: كيف يمكن ذلك إذ لم يرَ أحد من أهل البلد كله الهلال؟ فلو قال في الجواب: لقد سمعتُ ذلك من خليفة المسيح، فلا بد أن يصمت الآخر لإدراكه أن الإنسان الذي ذُكر اسمه أمامه عظيم بحيث لا يمكن أن يكذب، ولا بد أنه قد بلغه خبر رؤية الهلال من مكان ما. ولما كان القرآن الكريم يذكر معارف غير عادية، فقد جعل الله تعالى البسملةَ قبل كل سورةٍ تبيانًا للناس بأنكم ستستغربون من الأمور المذكورة في هذه السورة قائلين: كيف نصدق أن هذه الأمور غير العادية ستتحقق حتما؟ فها نحن نخبركم أن هذه الأخبار ليست من إنسان، بل أنا مالكُ السماوات والأرض الذي قد أنبأ بها، فلا بد أن تؤمنوا بصدقها. هذه هي الحكمة من ورود البسملة في مستهل كل سورة، حيث بيّن الله تعالى أنكم إذا وجدتم فيها شيئا غير عادي أو مستحيلا في الظاهر، أو نبأً مستقبليا يبدو ظهوره مستبعَدًا؛ فلا تكذّبوه، لأنه من عند الله تعالى.

ما أعظمَ هذه الدعوى التي قدّمها القرآن الكريم أمام العالم! إن كل كتاب من الكتب السماوية الأخرى يدّعي أنه من عند الله تعالى، ولكنه لا يعتبر كل فقرة فيه من عند الله تعالى. فالنصارى أنفسهم كتبوا أن كذا وكذا من الأمور في الإنجيل باطلة (موسوعة الكتاب المقدس تحت كلمة: text and versions، وأبوكريفا ١٤/١١)، ومع ذلك يقولون إن الإنجيل من عند الله تعالى، وإذا قيل لهم: كيف تقولون من جهة إن في الإنجيل أمورا باطلة، ومن جهة أخرى تدّعون أنه كتاب الله؟ قالوا: إن الإنجيل كتاب الله في مجمله، وليس أن كل فقرة فيه قد نزلت من عند الله تعالى. ولكن انظرْ إلى فضل القرآن الكريم على الإنجيل، فقد جعل الله تعالى البسملة قبل كل سورةٍ إيذانًا بأن كل فقرة فيه من الله تعالى، ذلك كيلا يقول أحد

–كأهل التوراة والإنجيل– بأن الفقرة الفلانية ليست من الله تعالى، بل أضيفت من قبل البشر، والعياذ بالله. بتعبير آخر إن البسملة ختمٌ طبع به الله كل فقرة من القرآن الكريم معلنًا أنها من عنده تعالى، وأنه لو بطلت فقرة من القرآن فلا يمكن أن يكون هذا الكتاب من عند الله تعالى. إن المؤمنين بالكتاب المقدس يقولون إن ما يتحقق منه هو من عند الله تعالى، وأن ما لا يتحقق منه هو من قِبل البشر، أما القرآن الكريم فيعلن أنه إذا لم تتحقق فقرة من هذا الكتاب، فاعلموا أن كل الكتاب ليس من عند الله تعالى. باختصار، إن البسملة قد جعلت الله تعالى مسؤولاً عن كل فقرة في القرآن الكريم، حيث يعلن عن مسؤوليته هذه مرة بعد أخرى بتكرار البسملة. لا شك أن التوراة كتاب الله تعالى، ومع ذلك يقال عنه إن فيها أجزاء قد أُضيفت إليها من قبل البشر. كذلك يقال عن الإنجيل إنه كتاب الله تعالى، ومع ذلك يعترف النصارى أن فيه فقرات ليست من عنده تعالى. وهذه المشكلة كان يمكن أن يعاني منها القرآن أيضا لو وردت البسملة فيه مرة واحدة؛ إذ كان هناك احتمال أن يقول بعض المسلمين ذوي الإيمان الفاسد بأن السورة القرآنية الفلانية ليست من عند الله تعالى، وإنما أضيفت من قبل البشر؛ ودفعًا لهذا العيب قد أنزل الله تعالى البسملة قبل كل فقرة، معلنًا أن القرآن الكريم كله من عند الله تعالى. لو ثبت بطلان آية من التوراة، فلا يقول اليهودي إن التوراة كلها باطلة، ولو ثبت بطلان آية من الإنجيل فلن يقول النصراني أن الإنجيل كله باطل، لكن القرآن الكريم يعلن أمام العالم أن كل فقرة فيه من عند الله تعالى، إن أصغر سورة فيه من الله تعالى مثل أكبر سورة منه، ولو ثبت بطلان أي فقرة منه، فاعلموا أن القرآن كله باطل و لم ينزل من عند الله تعالى.

ما أعظمَ هذه الدعوى التي قدّمها القرآن الكريم أمام العالم! إذ ليس بوسع أي كتاب سماوي أن يباريه في هذا المجال. إن الناس يدفعون عنهم المسؤوليات، ولكن القرآن قد زاد مسؤولياته بتكرار نزول البسملة فيه. لو نزلت البسملة مرة واحدة لفُهم أن هناك فقرات في القرآن الكريم ليست من عند الله تعالى، لكن الله تعالى قد بين بإنزال البسملة قبل كل سورة أنه ليس في القرآن فقرة لا نتحمل مسؤولية

صدقها، فبطلان فقرة منه هو بمنـــزلة بطلانه كله. ولكن من المحال تقديم أي فقرة قرآنية على أنها باطلة ويستحيل كشف صدقها على الناس.

باختصار، إن البسملة مفتاح لمعارف القرآن المشتركة ودليلٌ بيّن على أن كـــل فقرة منه قد نزلت من عند الله تعالى.

الواقع أن الله تعالى قد بيّن في قوله ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ ملخص العقيدة الإسلامية التي تقول إن كل ما في الكون هو لله تعالى، وأن كل ما يحدث فيه إنمـــا هو فعل الله تعالى، وليس هناك شيء هو خارج عن تصرفه، وليس هناك أمر هـــو ﷻ بحاجة إلى أحد بشأنه، وكل ما سواه محتاج إليه، ولا يستطيع أحد فعل شـــيء بدون عونه ﷻ. وهذا ما يسمى في العربية بالتوكل.. أعني أن الإنسان إذا عمـــل بحسب هذه العقيدة سُمّي عمله توكلا في المصطلح الإسلامي، فقوله تعالى ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ تفسير للتوكل على الله تعالى؛ إذ معناه أننا نبدأ هذا العمـــل مستعينين بالله تعالى الذي هيأ لنا الأسباب كلها دونما جهد وسعي أو تدبير منـــا، والذي يجزي على الأخذ بالأسباب أحسن جزاء مرة بعد أخرى. هذا تفسير وجيز للبسملة. والحق أننا لو فسرناها لملأت مجلدات. بتعبير آخر تخبر هذه الآية الموجزة أن الحال بيد الله تعالى، لأن الإنسان إذا قال ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الـــرَّحِيمِ﴾.. أي أستعين بالله تعالى.. فإنه يعني أن الزمن الذي أنا فيه والذي أريد فيه هذا العمل؛ هو تحت تصرُّف الله تعالى، فما لم يكن الحال تحت تصرف الله تعالى، فكيف يمكن أن يستعين به؟ إنما يستعين المرء بمن يكون الحال في قبضته وتصرفه. فاســـتعانته بـــالله تعالى في عمله إنما هو بمثابة إقرار منه أن الله تعالى هو المتصرف القادر في هذا الزمن الذي أنا فيه.

ثم إن لفظ ﴿الرَّحْمنِ﴾ يعني أنني أستعين بمن هو رحمن، الذي يسدّ الحاجـــات كلها دونما جهد وسعي وخدمة من العبد (مفردات الإمام الراغـــب). فالرحمانيـــة تشمل جميع ما يناله الناس من دون جهد وسعي، فهي تشمل خلـــق الـــسماوات والأرض والماء والهواء، وجسم الإنسان وكل ما عنده من أعضاء وقوى من أنـــف وأُذن وعين وغيرها. ثم إن الرحمانية تشمل خلق الحيوانات والجمـــادات والقمـــر

والنجوم وغيرها. فكل شيء يوجد في الدنيا من دون أي جهد منا فهو نتيجة الرحمانية، وكل شيء بذلنا جهدًا في وجوده فهو نتيجة الرحيمية. علمًا أن الأشياء في الدنيا نوعان: أحدهما ليس في خلقه دخلٌ لعمل الإنسان، والآخر للإنسان دخل في وجوده. والأشياء التي ليس للإنسان دخل في وجودها تندرج تحت الرحمانية.

أما السؤال: لماذا استخدم الله تعالى كلمة ﴿الرَّحْمن﴾ لبيان هذا المفهوم؟ ولماذا لم يقل مثلاً إن هناك أشياء هي من خلق الله تعالى، وأشياء وُجدت نتيجة جهود العباد وسعيهم؟ فالجواب: هذا التعبير ناقص؛ إذ يُفهَم منه أن بعض هذه الأشياء هي من خلق الله وحده، ولكن لا يفهم منه ما إذا خلقها الله تعالى لفائدة أحد، أم أن بعضها لا فائدة فيها، أما كلمة ﴿الرَّحْمن﴾ فأوضحتْ أن كل ما خلقه الله إنما خلقه من أجل منفعة الإنسان؛ ذلك أن "الرَحْم" لا يُستعمل إلا للإشارة إلى نفع الغير عن قصد، فمثلاً لا يقال عن الشمس المضيئة إنها ترحم العباد، ذلك أن الرحم يتضمن شرطين، أولهما: أن يكون العمل لمنفعة الآخر، وثانيهما: أن ينوي فاعله منفعة الآخر. فمثلاً لو مرّ شخص بالطريق فسقط جنيهٌ من جيبه صدفةً، ومرّ بعده شخص آخر وأخذ الجنيه وانتفع به، فلن يقال أن الشخص الأول رحيم؛ ذلك لأن الثاني قد انتفع بجنيهٍ لم يعطه الأول قصدًا وإنما سقط منه صدفةً. فثبت أن الرحمة لا تتضمن مفهوم نفع الآخرين فقط، بل يشترط لها أيضا نيّة نفعهم. فباستعمال كلمة ﴿الرَّحْمن﴾ قد أشار الله تعالى إلى هذه الأمور الإضافية التي ما كانت لتُفهم من دونها.. أعني أن الله تعالى لم يبين بكلمة ﴿الرَّحْمن﴾ أنه خالق كل هذه الأشياء التي لا دخل للإنسان في خلقها فحسب، بل بين أيضا أنه لم يخلقها إلا لمنفعة الإنسان مع قصد وإرادة أن ينتفع منها الإنسان.

﴿الرَّحِيم﴾ على وزن فَعيل، وهو يدل على تواتر الفعل وطول زمنه، بينما ﴿الرَّحْمن﴾ على وزن فَعْلان، وهو يشير إلى سعة الفعل. فمعنى صفة ﴿الرَّحِيم﴾ أن الإنسان إذا انتفع بالأسباب التي خلقها الله برحمانيته، رتّب الله على عمله النتائج مرة بعد أخرى (لسان العرب)، فإذا تناول الطعام مثلاً فلن يشبع فقط، بل سينتج منه الدم الذي ينفع جسمه شهورا وسنوات، ثم بهذا الدم يتقوى دماغه وبصره

وعقله وأذنه شهورًا وسنوات، ثم بالدم نفسه تتولد فيه النطفة التي تعمل على استمرار التناسل. إذًا فكل فعل للإنسان تترتب عليه النتائج على التوالي والتواتر، وهذه هي الرحيمية. لو أدّى فعل الإنسان إلى نتيجة فورية واحدة لسمّيناه جزاءً، ولكان كالأجير الذي تؤدى له أجرته مرةً، ولكن هذا ليس من الرحيمية في شيء، إنما مثل الرحيمية كمثل معاش التقاعد، فإن المرء إذا توظف نال على عمله أجرا بصورة دخل شهري، كما يُكتَب في السجلات أيضًا أن يعطى الموظف على عمله أجرًا آخر متواترًا في المستقبل، ولذلك فإنه إذا تقاعد من الوظيفة -مثلاً- بعد عشر أو خمس عشرة سنة استحق عُشر دخله معاشا للتقاعد، وإذا تقاعد بعد عشرين سنة استحق ثلث دخله معاشا للتقاعد، وإذا تقاعد بعد خمس وعشرين سنة وقدّم شهادة طبية لإعفائه من العمل استحقّ نصف دخله معاشا للتقاعد، وإذا عمل ثلاثين سنة استحق نصف دخله معاشًا للتقاعد، وإذا استمر في وظيفته ثلاثين سنة ومن دون تقديم شهادة طبية استحق راتبا كاملا معاشًا للتقاعد. هذا ما يماثل الرحيمية.. أي أن المرء لا يُجزى على عمله فورًا فحسب، بل يوضع أساس نتائج طيبة لعمله تظهر في المستقبل أيضا.

هنا ينشأ السؤال: فما الفرق إذًا بين رحيمية الله ورحيمية الإنسان؟

الجواب: أن الإنسان يجزي غيره هذا الجزاء الإضافي لعلمه أن هذا سوف يموت بعد بضع سنوات، ولو أنه علم أن هذا لن يموت أبدًا لما أعطاه معاش التقاعد. أما الله تعالى فإنه يجزي الإنسان الجزاء الإضافي مع علمه أنه يظل خالدًا، بل إنه تعالى نفسه يعلن أنه لن يُفنيه نهائيًا، بل يكتب له حياة خالدة، فليس الأمر بأن الله تعالى يجزي الإنسان جزاءً إضافيًا لأنه مات صدفة، بل إنه يجزيه هذا الجزاء مع أنه نفسه يهيئ الأسباب لاستمرار حياته وخلوده الأبدي. فشتان بين رحيمية الله تعالى ورحيمية الإنسان.

واعلم أن ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ تشير إلى الحال، و﴿الرَّحْمنِ﴾ إلى الماضي، و﴿الرَّحِيمِ﴾ إلى المستقبل. وهذه الكلمات الثلاث تشير إلى أن أعمال الإنسان كلها منوطة بقدر الله تعالى. فقول الله تعالى ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ يشير إلى شيء من تدبير الإنسان.. أي أنه

يقول: سأقوم بهذا العمل بمعونة الله تعالى، وهذا إشارةٌ إلى نيته للعمل، لأنه إذا لم ينو فعل شيء فكيف يقول: أبدأ هذا العمل بمعونة الله ﷻ؟ فثبت أن هناك شيئًا من تدبير الإنسان في العمل على كل حال. وبعدها يبدأ نطاق عمل الرحمانية التي تتعلق بالله خالصةً. أما الرحيمية ففيها إشارة إلى أن العبد يقوم بعمل ضئيل فيرتب الله عليه النتائج التي لا نهاية لها. وهذا يعني أن أعمال الدنيا تجري بالتدبير والقدر معًا، إذ تكشف لنا البسملة أن القدر والتدبير متشابكان بحيث لا يمكن فصلهما. ثم بعد ذلك تصبح أعمال الإنسان عظيمة أو ضئيلة بحسب درجة إيمانه، فأما صاحب الإيمان الكامل فيكون القدر الإلهي أكثر تأثيرًا في أعماله من تدبيره، فكما أن الرحمانية خالصة لله تعالى، كذلك فإن تأثير القدر في أعمال العبد المقرب وحياته يكون أكثر من تأثير تدبيره. لا شك أنه يتخذ التدبير، لكن نتائج أعماله تكون أكثر من تدبيره بكثير، ومثاله قول الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾(الأَنْفال: ١٨). فإن النبي ﷺ رمى العدو بحفنة من الحصى (السيرة النبوية لابن هشام)، ولكن انظرْ إلى النتيجة، فلو أن عشرة آلاف شخص رموا بحفنات من الحصى لما كانت نتيجته كنتيجة الحصى التي رماها الرسول ﷺ؛ إذ إنها أفشلت جيشًا قوامه ألف مقاتل محنك. لا شك أنه ﷺ ألقى الحصى، ولكنه لما ألقاها قال الله تعالى: لقد انتهى الآن عمل عبدي، وبدأ عملي؛ فأجرى الرياح لتوصل الحصى إلى الأعداء. لقد أمرها أن تهبّ بشدة وتُلقي الحصى في عيونهم. إن حفنة من الحصى يمكن أن تقع في عيون بضعة أشخاص، ولكن الله تعالى جاء بعاصفة حملت الرمال والحصى وألقتها في عيونهم، مما يعني أن محمدا ﷺ ألقى حفنة من الحصى وأن الله تعالى ألقى ملايين الحصى. لا شك أنه إذا رمى الإنسان شيئًا بيده تحرّكَ الهواء، ولا شك أن النبي ﷺ حين رمى هذه الحفنة قد تحرّك الهواء، ولكن هبوبه لا يساوي نفخ أحد بفمه، بينما نرى أنه ما إن حرّك النبي ﷺ يده إلا وأمرَ الله الرياح أن تهب بشدة وتعمي الأعداء، وهكذا خيّبهم في نواياهم تمامًا.

باختصار، كان التدبير الإنساني أقل تأثيرًا من القدر في هذه الآية التي أظهرها الله على يد رسوله ﷺ، وهذا هو الحال بالنسبة إلى أعماله ﷺ الأخرى، بل لأعمال

الأنبياء الآخرين أيضا؛ فنصيب التدبير فيها أقل من نصيب القدر. أما أحباء الله الذين هم أقل درجة من الأنبياء فنلاحظ أن نصيب التدبير في أعمالهم أقل من نصيب القدر أيضًا. أما ضعاف الإيمان كالماديين والدهريين فالتدبير غالب في أعمالهم – لقد سميتهم ضعاف الإيمان لأن الدهريين أيضًا يكون عندهم شيء من الإيمان بالله، أو يؤمنون على الأقل بقوانين الطبيعة التي خلقها الله تعالى، فلا يمكن اعتبارهم عديمي الإيمان كليّة، بل نقول عندهم نصف الإيمان، بل في بعض الأحيان يكونون أكثر إيمانا بأفعال الله تعالى من المؤمنين أنفسهم، اللهم إلا المجانين الذين لا يراعون قوانين الطبيعة التي خلقها الله ولا يراعون أحكامه التي أنزلها في كلامه– فتأثير التدبير في أعمال ضعاف الإيمان والماديين والدهريين أكثر من القدر.

مع العلم أن القدر الإلهي يؤثر في أعمالهم حتمًا، فمثلا: عندما يأكل الدهري فلا بد أن تقوم معدته بهضم الطعام، والواضح أن هذا فعل القدر. فكل ما فعله هو أنه أراد تناول الطعام ووضع اللقمة في فمه، وقام القدر الإلهي بالباقي. كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يقول مرارًا: إن أشد الناس إلحادًا أيضا لا يمكن أن يخرج عن قانون القدر الإلهي، فلو وضعتَ الحلوى على لسانه الذي لا يبرح يسبّ به الله تعالى، فلا بد أن يجد حلاوتها (حقائق الفرقان ج١ ص ٢٧٦-٢٧٧). فالقدر يعمل عمله في أعمال كل إنسان، ولكن جانب التدبير في أعمال ضعاف الإيمان هؤلاء يكون أقوى من جانب القدر. أما أهل الله المقربين فمعاملتهم على عكس ذلك، وأما المؤمنون الذين هم بين هذين الصنفين، سواء كانوا ممن يؤمن بكلام الله تعالى حقًا، أو لا يؤمن به –مثل المسيحي الذي يسمي نفسه مؤمنًا لإيمانه بالديانة المسيحية مع كفره بالإسلام، أو اليهودي الذي يسمي نفسه مؤمنا لاتّباعه الديانة اليهودية، أو الهندوسي الذي يسمي نفسه مؤمنا لاعتناقه الديانة الهندوسية– فأعمالهم مزيج من التدبير والتقدير، إذ إنهم يدعون الله تعالى أيضا وإن لم يكونوا من أتباع الدين الحق –فالنصارى واليهود والهندوس كلهم يدعون الله تعالى– ويتخذون التدابير أيضا.

باختصار، إن المؤمن الكامل الذي يصطبغ بصبغة الله تعالى يغلب على أعماله القدر، أما البعيد عن الله تعالى فيغلب على أعماله التدبير، أما الذي هو بينهما فأعماله مزيج من القدر والتدبير. هذا هو المعنى الذي بيّنه قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾.

وحيث إنّ البسملة قد وردت في مستهلّ كل سورة، فإذا بدأ المرء قراءتها بقوله تعالى ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ فكأنه أقرّ: سأسعى للانتفاع بالموضوع المذكور فيها بقدر إيماني وعرفاني، فلو كان من أصحاب الإيمان العالي أصبحت السورة بالنسبة له وكأنها قد أُنزلت له كما أُنزلت لمحمد ﷺ، أما إذا كان ممن يكنّون العداء للقرآن فلا ينتفع منها شيئا، بل تصبح كلها بلا نفع له، ويضيع قدر الله تعالى في حقّه، أما إذا كان متوسط الدرجة في الإيمان فإنه ينتفع من معارفها ومفاهيمها إلى حد معيّن، ولكن لا ينتفع كل الانتفاع.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾

التفسير: قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أصلُه: أَلَمْ تَرَى، وسقطت الألف المقصورة بسبب "لَمْ" الجازمة.

والرؤية هنا ليست رؤية عين وبصر، بل رؤية قلب وبصيرة (لسان العرب)، ذلك أن الحادث الذي قد أُشير إليه هنا كان قد وقع قبل ولادة النبي ﷺ، فما كان بوسعه أن يراه.

هناك اختلاف بين المؤرخين عن زمن الحادث المشار إليه هنا، فقد وقع قبْل ولادة النبي ﷺ بسبعين عاما، أو خمسين، أو أربعين، أو ثلاثين، أو ثلاثة وعشرين، أو خمسة عشر، أو عشرة أعوام حسب مختلف الروايات (روح المعاني، ومجمع البيان). أما الرواية الصحيحة التي تدعمها قرائن تاريخية فهي أنه وقع في سنة ميلاد

النبي ﷺ (مجمع البيان). هذا هو التوقيت الذي تدعمه الشهادات التاريخية، وقرائنها موجودة في تواريخ العرب وتواريخ البلدان الأخرى.

لقد وقع حادث أصحاب الفيل في الشهر المحرم وهو الأول من السنة القمرية، بينما ولد النبي ﷺ في ربيع الأول من نفس العام (المواهب اللدنية للزرقاني).

ثم اختلف هؤلاء في يوم وقوع حادث أصحاب الفيل من شهر محرم، فمنهم من قال إنه قد وقع في الأيام الأولى منه، ومنهم من قال بوقوعه في الأيام الأخيرة منه (روح البيان).

كذلك اختلفوا في ولادة النبي ﷺ في شهر ربيع الأول، فبعضهم قالوا إنه ولد في اليوم الأول منه، وآخرون ذكروا أياما أخرى.

وبسبب هذا الاختلاف فقد اختلفوا على زمن أسبقية حادث الفيل لولادة النبي ﷺ؛ فمنهم من قال إنه قد سبق ولادته ﷺ بخمسة وخمسين يوما، وهذا قول الحافظ الدمياطي، أما السهيلي المؤرخ الكبير فيرى أنه سبق ولادته بخمسين يوما، وقال غيره إنه سبق ولادته ﷺ بأربعين أو ثلاثين يوما (روح المعاني). لكن عامة المؤرخين الإسلاميين والمحدثين يميلون إلى قول السهيلي.

ولما كان هذا الحادث قد سبق ولادة النبي ﷺ، سواء بثلاثين يوما أو ثلاثين سنة، فلا يمكن أن يكون ﷺ قد رآه بعينيه، فثبت أن الرؤية هنا رؤية قلب لا رؤية عين، وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني: ألم تعلم.

ومثل هذا الاستفهام يفيد معنيين عادةً: أوّلُهما معرفةُ ما إذا كان المخاطَب على علم بالحادث أم لا، وثانيهما التأكيدُ على أنه على علم به. فالتعبير الظاهر هنا نفيٌ، ولكنه إيجاب، بل تأكيد على الإيجاب. وهذا الأسلوب شائع بلُغتنا الأردية أيضًا حيث نقول: ألم تعلم أنني أستطيع فعل ذلك؟ والمعنى أنك تعلم جيدا أنني قادر على فعل ذلك. فهذا التعبير يفيد اليقين والتأكيد بدلاً من الشك. ولو كان قائله أحدًا من البشر فيمكن أن تنشأ شبهة فيما إذا كان في شك أم يقين، أما إذا كان القائل هو الله تعالى فمن المحال أن نتصور أنه تعالى يقول: إني لا أعلم ما إذا كنتَ تعلم

هذا الأمر أم لا، فأخبِرْني أتعلَمه أم لا. إذن، فهذا التعبير لا يفيد الشك إذا ما استعمله الله تعالى، إذ يخبرنا القرآن الكريم أنه لا تخفى عليه خافية.

فثبت من هنا أن هذه الجملة تفيد هنا اليقين والقطعية. فمع أن قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني حرفيًا "ألم تعلَمْ"، إلا أن المراد الحقيقي هو أنك تعلم جيدًا وتفهم جيدا، وأن الأمر ليس بخاف عليك.

وهناك سؤال آخر عن قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وذلك أن القرآن يوجه خطابه للعالم كله عادةً، فهل قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ موجه إلى العالم كله أم إلى محمد ﷺ أم إلى أعداء الاسلام؟

والجواب: لا شك أن رسالة القرآن موجهة إلى العالم كله مع كون بعض الآيات تخاطب الرسول ﷺ مباشرة، غير أن الواضح من كلمات هذه السورة أنها تخاطب الرسول ﷺ مباشرة، وتخاطب العالم بواسطته، والدليل على ذلك هو قول الله تعالى بعد ذلك: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، فاللهُ ربُّ الجميع، ولكن ما دام الله تعالى يشير هنا إلى حادث ذي صلة بالعرب عامة وبحياة الرسول ﷺ خاصة، فتبينَ مِن لفظ (ربك) بجلاء أن الخطاب هنا موجه إلى النبي ﷺ خاصة. فضمير الخطاب الموجود في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وقوله تعالى ﴿رَبُّكَ﴾ يؤكدان أن هذا الحادث وثيق الصلة بالرسول ﷺ، وأن مضمون هذه السورة يتعلق بمحمد ﷺ بوجه خاص. فإذا لم تكن هذه السورة وثيقة الصلة بمحمد ﷺ فما الداعي أن يقول الله هنا ﴿ربُّك﴾؟ فنحن إذا تحدثنا فيما بيننا عن مصير الملك نادر شاه الأفغاني مثلاً فلن نقول ألم تر كيف فعل ربك بنادر شاه، بل نقول: ألم تر كيف فعل الرب بنادر شاه؟ لأن ضمير الخطاب يشير إلى علاقة خاصة بينك وبين نادر شاه، كذلك فقول الله تعالى لرسوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ لا يعني إلا أن ما فعلنا بأصحاب الفيل إنما فعلناه من أجلك. ولولا هذا المفهوم فما خصوصية محمد ﷺ في معرفة حادث أصحاب الفيل؟ إذ كان جميع أولاد العرب على علم بالحادث، بل كان بعض مَن شهدوا ذلك الحادث لا يزالون على قيد الحياة عند نزول الآية، فلا يصحّ –والحال هذه– أن يقول الله لرسوله ﷺ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾؟ فما دام

الآلاف على علم بالحادث -بل كان العديد من شهود العيان عليه على قيد الحياة آنذاك- فأي خصوصية للرسول ﷺ في معرفته بالحادث؟ إنما تثبت خصوصيته ﷺ إذا كان للحادث علاقة خاصة به ﷺ.

واللافت هنا أن الله تعالى لم يقل هنا: "ألم تر ما فعَل ربك"، بل قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، وهناك بون شاسع بين التعبيرين. لو أراد الله تعالى ذِكر ما فعل بهم لما قال ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، مما يعني أن التأكيد هنا ليس على ما فعل بهم، وإنما على كيفية ما فعل بهم. ومن خصائص العربية استبدال كلمة بأخرى لأداء مفهوم كبير. كان "الفارابي" من مشاهير فلاسفة المسلمين إذ بلغ من الصيت ما بلغه اليوم "هيجل" بين الفلاسفة الأوروبيين. كان الفارابي يقضي معظم أوقاته في دراسة الفلسفة والأدب، فكان أديبًا كبيرًا ولغويا عظيمًا. وبينما كان يمر بالسوق ذات يوم، وجد طفلا يبيع الحلوى، فقال له: كيف تبيع الحلوى؟ فقال: الرطل بدرهم. فأخذه الفارابي من تلابيبه وصاح: ما هذا الظلم الذي يُرتكب بحق لغتنا العربية بدون أن يحتج عليه أحد؟ فأخذ الطفل يصرخ، فاجتمع الناس ولكن لم يجرؤ أحدهم على مساعدة الطفل لكون الفارابي رجلا عظيما. يمكن أن تتخيلوا الشاعر الدكتور "إقبال" أو الشاعر "غالب" يمسك بطفل ويتهمه أنه يفسد اللغة الأردية، فهل يجرؤ أحد على الاعتراض عليه؟ فاحتار الناس و لم يتدخلوا بينهما، حتى جاء رئيس الشُّرَط، فأفزعه ما رأى، وكان ذكيا فتوسّل إلى الفارابي قائلا: أرجوك أن تسلّمنا هذا الطفل لنعاقبه. ثم سأله ما جريمته؟ فقال: تسألني عن جريمته؟ لقد سألته: كيف، فأجابني بكم. لقد أفسد لغتنا وظلمها ظلما عظيما.

فها هو الفارابي يتوقع من طفل صغير أن يتكلم بلغة عربية سليمة، ولكن المسلمين لا يتوقعون من الله تعالى أن يستعمل في وحيه كلمات سليمة؛ إذ يقولون إن الله تعالى قد قال هنا "كيف" بمعنى "ما" التي تفيد الكم وليس الكيف، مع أن الواقع أن لفظ "كيف" قد زاد الموضوع جمالاً وبهاءً. فقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ تركيزًا على كيفية ما فعل بهم، وليس على كميته. إنه لم يقصد بذلك التركيز على موت عشرة أشخاص أو مائة شخص أو هلاك عامة الجنود أو قادتهم،

أو هلاك فيلهم أو كلابهم، وإنما أراد التركيز على الظروف غير العادية التي هلكوا فيها.. وحتى لو كان الهالك شخصا واحدا، فإنه قد هلك حين كانت الدنيا تقول إنه لن يهلك. فالمقصود هنا التركيز على الكيفية لا على الكمية.. أي أن الله تعالى يشير هنا إلى الظروف الخارقة التي خلقها لتدميرهم، والتي ليس بوسع العقل أن يستوعبها. ولكن المفسرين يقولون بأن الحجارة قد أصابت القوم في رؤوسهم وخرجت من تحتهم (روح المعاني)، أو أنه لم يستطع أحد منهم النجاة أو العودة إلى بلده، مع أن القرآن لم يرد التركيز على هذا الأمر، وإنما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾.. أي ألم تعلم وتفكّر كيف دمّر ربك أصحاب الفيل في ظروف غير عادية. لم يقل الله تعالى هنا إنهم قد هلكوا بكثرة، إذ إن الناس يموتون بكثرة بغرق سفينة أحيانًا. إن ما يركز الله عليه هو: انظروا إلى يدي التي كانت وراء الحادث، وفكّروا أن كل ما حصل إنما حصل من عندي، لا من طرف بشرٍ. فالحق أن الله تعالى لا يركز هنا على تفاصيل الحادث ووقائعه، وإنما يركز على كونه نادر الوقوع ومخفي الأسباب. وليس المقصود بيان ما إذا كان أبرهة وجنوده قد هلكوا جميعا أم أن بعضهم قد نجوا، بل المقصود كيفية هلاكهم، فلم يهلكوا بتدبير من البشر، إنما هلكوا نتيجة ظروف خلقها الله تعالى. فالله تعالى يركّز هنا على كيفية ما فعل بأبرهة، وليس على كميته. يقول تعالى إننا أهلكنا أبرهة بحيث ما كان لأهل الدنيا أن يتصوروا هلاكه، وأننا إنما فعلنا ما فعلنا من أجل محمد رسول الله ﷺ فقط.

إذن، فالله تعالى يركز هنا على تكريمه لمحمد رسول الله ﷺ، وإظهارِ قدرته من أجله وحمايتِه له من هجوم العدو، أما حمايته للكعبة وإنقاذها من الهجوم فكان هدفًا ثانويًا، ومثاله أن يدعو المرء شخصية كبيرة للطعام ويدعو معها خدمه أو سكرتيره الخاص أيضا. وأي شك في أن الخدم والسكرتير الخاص ليسوا مدعوين في حد ذاتهم، وإنما المدعو الحقيقي هو هذه الشخصية الكبيرة التي أقيمت المأدبة على شرفها؟ كذلك لم تكن حماية الكعبة المشرفة الهدفَ الحقيقي في هذا الحادث، وإنما كانت حماية النبي ﷺ هو المقصود الحقيقي، ولذلك قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾..أي ألم تعلم كيف عامل الله تعالى أصحاب الفيل؟ فقوله تعالى

﴿رَبُّكَ﴾ يدل بكل وضوح على أن الله تعالى لم يُرِدْ بهذا الحادث حمايةَ الكعبة بقدر ما أراد حماية النبي ﷺ. لو كانت حماية الكعبة هي الهدف الأساس، فكان يجب أن يقال: ألم تر كيف فعل رب الكعبة.

وما دامت يد الله تعالى هي التي كانت وراء هذه المعجزة؛ فمن حق الله وحده أن يخبرنا عن الذي أظهرها من أجله. لو كانت يد البشر وراء هذه المعجزة فكان بإمكان الناس أن يقولوا إنها ظهرت من أجل فلان أو فلان. ولكنها لم تحصل بيد إنسان، بل بيد الله فقط، فمن حق الله فقط أن يبين الهدف الحقيقي وراءها. لنفترض أن شخصا يقيم مأدبة على شرف زيد، فلا يحق لبكر أو عمرو أن يقول بأنه أقامها على شرف خالد، ولو قال ذلك لقلنا لصاحب البيت أن يخبرنا على شرف من أقامها، وسوف نرضى بقراره. وقد قال الله تعالى هنا أولاً ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ ليبين أن هذه الآية لن تظهر بجهود إنسان، ثم قال ﴿رَبُّكَ﴾ ليخبر أنه قد أظهرها من أجل محمد ﷺ. وكأن الله تعالى يقول: يا محمد، لا شك أننا طيّبنا خاطر أهل مكة أيضا من خلال هذا الحادث، كما أرسينا شرف الكعبة أيضا، ولكنها أهداف ثانوية، إذ لم نُرِ هذه الآية إلا من أجلك، وكنتَ الهدف الحقيقي وراءها.

فالواقع أن هذه الآية إنما ظهرت من أجل محمد رسول الله ﷺ لا لغيره. لا شك أن أهل مكة كانوا يعترفون بهذه المعجزة، لكنهم لم يكونوا يعترفون أنها ظهرت من أجل أحد سِواهم. كانوا يدركون تمامًا أنها آية بيّنة على صدق دعاء إبراهيم عليه السلام (مجمع البيان)، ولكنهم لم يكونوا يصدِّقون أنها إنما ظهرت تكريمًا لمحمد ﷺ، ولو اعترفوا بذلك لآمنوا به ﷺ وأسلموا. ومن أجل ذلك يؤكد الله هنا هذا الأمر، وكأنه يقول لهم: لماذا لا تؤمنون بمحمد ﷺ أيها الحمقى وقد أريناكم هذه المعجزة حتى قبل ولادته؟ وما دمنا قد بدأنا إراءة الآيات من أجله حتى قبل ولادته، فلِمَ لا تدركون أننا لن نبرح نُري له الآيات حتى آخر أيام حياته.

ثم إن كلمة (رَبّ) في قوله تعالى ﴿رَبُّكَ﴾ إشارة أيضا إلى أن تربية محمد ﷺ وأعماله وثيقة الصلة بهذه المعجزة، إذ لولاها لأصبحت تربية محمد وإنجازه أعماله

ضربًا من المحال. فكلمة (رب) تبين أن الله تعالى قد دمر أصحاب الفيل كي تتم تربية محمد وتُنجَز أعماله على ما يرام.

وهنا ينشأ سؤال: ما علاقة هذا الحادث بمحمد رسول الله ﷺ؟

والجواب أن محمدا ﷺ قد بُعث تحقيقًا لنبوءة إبراهيم عليه السلام؛ لأن إبراهيم كان قد دعا ربه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (البقرة: ١٣٠).. أي ربنا ابعثْ في ذريتي الذين أتركهم في مكة نبيًّا، فقوله تعالى ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ يعني وابعثه في أهل مكة، و﴿مِنْهُمْ﴾ يعني أن يكون أحدًا منهم ومن أهلها، ويكون على صلة معهم، و﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يعني أن يقرأ عليهم آياتك، و﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني أن يعلّمهم كتابك وما في أحكامه من حِكمة، و﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ يعني أن يطهّرهم وينمّيهم.

والواضح من هذا الدعاء أن هذا الرسول كان سيُبعث بين أهل مكة، ليصلحهم ويجعلهم أمة عظيمة. لا شك أن الرسول ﷺ كان سيقوم بإصلاح باقي العالم أيضا، ولكن إصلاح أهل مكة كان مسؤوليته الأولى. ومن معاني التزكية: التنمية والترقية، وهذا يعني أن الرسول ﷺ كان سيجعل أهل مكة أمة عظيمة. ولكن لو دُمّرت الكعبة المشرفة لتشتّتَ أهل مكة وتفرقوا هنا وهناك بحثًا عن المعاش. كان أهل مكة يقيمون هناك سدنةً للكعبة شأنهم شأن المجاورين للزوايا والمقابر، ولو أمر الملك بهدمها لتشتتوا من حولها باحثين عن وسيلة معاش لهم إذ كانوا يقيمون هناك عائشين بما يجود به الناس على القبور من نذور وصدقات. ولو أن الكعبة دُمرت لما بقي لأهل مكة سبيل للمعاش، ولم يبقَ في قلوب الناس تعظيم وتكريم لهم، بل قالوا إن هؤلاء كانوا يدّعون عبثًا أنه مكان مقدس، إذ لو كان الأمر كما ادعوا لما دُمرت الكعبة هكذا. فلو خربت الكعبة لتشتت أهلها وتفرقوا في البلاد، ولعمَّ الخرابُ المكانَ الذي كان موعدا لظهور نبيهم الموعود. لو خربت مكة فمن أين كان سيُبعث هذا الموعود؟ وماذا كان سيفعل؟ كانت النبوءة الإبراهيمية تقول إنه سيظهر في مكة، وسيعيش بين أهلها، وما كانت هذه النبوءة لتتحقق إلا إذا ظلت مكةُ عامرةً، فلذا كان لا بد من حماية الكعبة المشرفة وبقائها ليظهر فيها هذا

الموعود لإنجاز مهمته. وإليه يشير الله تعالى بقوله ﴿رَبُّكَ﴾ حيث يقول لرسوله إن الهدف من هلاك أصحاب الفيل هو إرساء عظمتك أكثر من حماية الكعبة.

ثم يجب أن لا ننسى أيضا أن أبرهة قد خرج لهدم الكعبة بلا شك، ولكن جنوده لم يكونوا يريدون ذلك، وإنما أمر جنوده بالخروج معه فنفّذوا أمره، بينما يقول الله تعالى هنا ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، وهذا التعبير لا يخلو من حكمة. فهل كان صعبا على الله ﷻ أن يقول مثلاً: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأبرهة؟ أو يقول: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بملك اليمن؟ ولكن بدلاً من هذا القول البسيط المباشر قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.. مما يدل بوضوح أن في هذا التعبير حكمة بالغة، وما هي إلا أن الله تعالى قد أعلن هنا أننا لم نهلك أبرهة فحسب، بل أهلكنا قومه أيضا؟ لأن "أصحاب الفيل" ليس إشارةً إلى الجنود الذين خرجوا مع أبرهة فقط، بل أيضًا إلى الأمة الحاكمة على اليمن، فهم الذين تشير هذه السورة إلى هلاكهم. ذلك أننا لو دمّرنا مَدافعَ جيش أو كتيبة منه، فيمكننا القول إنا قد دمرنا هذه المدافع أو هذه الكتيبة، ولكن لا يمكننا القول إنا قد دمرنا أصحاب تلك المدافع أو الكتيبة؛ إذ لم ندمر الدولة التي قد بعثت بهؤلاء الجنود، فتعبيرنا "إنا دمّرنا أصحاب المدافع" يعني أننا لم ندمر الجيش الذي جاء لمحاربتنا فحسب، بل قضينا أيضًا على قوة الدولة التي بعثتهم. هذا المثال يوضح أن هذه الآية لا تتحدث عن هلاك أبرهة وجنوده فحسب، لأن لفظ "أصحاب الفيل" لا يشير إلى أبرهة وجنوده فقط، بل أيضًا إلى الشعب الحاكم على اليمن الذي بعثهم.

إذًا فالله تعالى يعلن هنا أننا لم نهلك أبرهة وجنوده فحسب، بل وجّهنا الضربة القاضية إلى قوة "النجاشي" نفسه -الذي كان اليمن ولايةً تابعة لدولته المسيحية- فضعفت قوة المسيحيين بسبب هذا الدمار.

وبيان الحكمة العظيمة في دمارهم أن هلاك جيش من جيوش دولة أو حكومة عظيمة لا يقلل الخطر على العدو، بل يزيده. فمثلا لو قُتل شرطيّ في اشتباك مع قُطّاع الطرق فهذا لا يقلل الخطر عليهم، بل يزيده، كذلك لو تمرد أهل منطقة على

دولة متحصنين بحصن، وهلكت الكتيبة التي أرسلتْها لإطفاء فتنتهم، فهلاكها لا يقلل الخطر على المتمردين بل يزيده، لأن الدولة سوف تنتقم لهم إذ تبعث كل قوتها قمعًا لفتنهم. فلو أن أبرهة هلك وفر جنوده منهزمين ومتكبدين خسائر فادحة فقط، لأخذت ثأرهم دولةُ اليمن التي كان يحكمها والٍ من قبل الدولة الحبشية المسيحية. وكان بإمكان هاتين الدولتين أن تسحقا العرب بكل قواها، ولو حدث ذلك لتعرضت بعثة النبي ﷺ لخطر شديد، إذ كان هناك احتمال أن تبعث الدولة المسيحية بعد كل فترة وأخرى جيشًا للهجوم على مكة، إذ كان اليمن قاعدة لقواتها في الجزيرة العربية، وكانت قادرة على أن تبعث جنودها بكل سهولة من حين لآخر للقضاء على العرب، ولو حصل ذلك لاستحال أن يتربى النبي ﷺ ويترعرع بين أهل مكة حتى يبلغ الشباب وما كان بوسعهم أن يروا سيرته وأخلاقه، وبالتالي لم يستطيعوا أن يروا تحقُّق دعاء إبراهيم الذي سأل فيه ربه أن يبعث فيهم نبيًا منهم؛ إذ كان لا بد أن يتشتتوا ويتفرقوا نتيجة تعرضهم لهجمات الدولة الحبشية القوية، وحتى لو لم يتفرقوا ويتشتتوا فأيضًا لم يستطيعوا رؤية سيرة النبي ﷺ وأخلاقه وآيات صدقه في كل تصرف من حياته، وبالتالي لتعرّضَ أساس الإسلام نفسه للخطر. ومن أجل ذلك يخبر الله تعالى بأننا لم نهلك أبرهة وجنوده فحسب، بل قضينا على القوة التي كانت وراءه، فأُصيبوا بنكسة شديدة جعلت العرب يتمردون عليهم في اليمن، مما أدى إلى استيلاء الفُرس على اليمن وانتهاء حكم النجاشي هناك (البداية والنهاية: ذكر خروج الملك من الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذي يزن الحميري). ولم يكن بين أهل مكة والحكومة الفارسية اليمنية أية خصومة، فلزمت الصمت تجاههم. أما الحبشيون الذين كانوا يمكن أن يثوروا غضبًا على أهل مكة فاستأصلهم الله استئصالا. لا شك أن مُلك النجاشي ظلّ قائما في الحبشة بعد ذلك، لكنه فَقَدَ قاعدته في اليمن؛ ولأنه ما كان ليشن الحرب على العرب إلا عن طريق اليمن الذي وقع عندها تحت حكم الفرس فزال خطر هجوم النجاشي على العرب.

فالحق أن المراد من أصحاب الفيل هو دولة النجاشي، لأن الفيلة لم توجد في الجزيرة العربية، بل كانت تجلب من الحبشة، فقول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ يعني انظرْ كيف قضينا على الحكومة الحبشية المسيحية في أراضي العرب. وكأن الله يقول: لم نهزم أبرهة وجنوده فحسب، بل محونا مِن أرضهم (اليمن) آثار الحكومة الحبشية حتى لا يهددهم خطر الهجوم المتكرر من قِبلهم.

والآن أسرد هنا واقعة أصحاب الفيل من المنظور التاريخي الذي أراه صائبا.

لقد وقع هذا الحادث في سنة ميلاد النبي ﷺ وفقًا لأكثر الروايات وأوثقها، وبعشر سنوات قبل ولادته أو خمس عشرة أو ثلاث وعشرين أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين أو سبعين سنة بحسب روايات أخرى ضعيفة، وبخمسين يوما حسب رواية السهيلي، وبخمسة وخمسين يوما بحسب رواية الدمياطي. بينما يرى البعض أنه وقع قبل ميلاده ﷺ بأربعين يوما، أو بشهر (روح المعاني).

أما تفاصيل هذا الحادث فهي كالآتي: كانت حِمْيَر -القبيلة العربية- حاكمةً على اليمن قبل واقعة أصحاب الفيل بسنوات، وكان اسم مِلكهم ذو نواس الحميري، الذي اعتنق اليهودية كما ذكر بعض المؤرخين، بينما يرى الآخرون أنه كان مشركا ومائلا إلى اليهودية (السيرة النبوية لابن هشام: مُلك ذي نواس، وتفسير ابن كثير). والأغلب أن فكرة كونه يهوديا نشأت لكونه عدوا للنصارى، أو لعله صار يهوديا بالفعل. وأرى أن منشأ هذا العداء هو أن اليمن يقع قريبًا من سواحل الحبشة، مما كان يؤدي إلى توتر العلاقات بين البلدين. فذات مرة اغتاظ ذو نواس الحميري من المسيحيين في بلده وألقى القبض على عشرين ألفا منهم، وحفر لهم الأخاديد وأحرقهم فيها أحياء، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له دوس ذو ثعلبان. ويرى المفسرون أنهم القوم الذين فيهم نزل قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (تفسير ابن كثير). وكان النصارى يعوّلون في ذلك الزمن على الحكومة الرومية المسيحية التي كان سكانها جميعا مسيحيين (أردو دائرة معارف

إسلامية، تحت كلمة: بوزنطيه، موسوعة الأديان تحت كلمة: Roman Religion)، وكانت دولة قوية مترامية الأطراف إذ كانت تحكم نصف الكرة الأرضية؛ فكانت مناطق الشام وفلسطين والأناضول تابعة لها، كما كان ملوك مصر وليبيا والحبشة تابعين للإمبراطور الروماني. وكان المسيحيون من كل مكان يهربون إليه ويلوذون به، شأنهم في ذلك شأن مسلمي الهند في الماضي الذين كانوا يظنون بأنه إن أمكنَ لأحد أن ينصر المسلمين في مصائبهم فإنما هو السلطان التركي ثم الملك الأفغاني. فهرب دوس ذو ثعلبان من اليمن ولاذ بقيصر الروم. وكانت الحروب تقع بكثرة بين الفرس والروم (أردو دائرة معارف إسلامية، تحت كلمة: ساسانيان) مما جعل القياصرة يقضون معظم أيام السنة في الشام. وكان القيصر آنذاك مقيما في الشام، فتوسل إليه دوس ذو ثعلبان بأخذ الثأر لضحايا هذه المجزرة، ولم تكن حدود الإمبراطورية القيصرية متصلة باليمن، بل كان يفصلهما منطقة حرة عرضها ٥٠٠ ميل أو ٦٠٠، فلم يستطع القيصر أخذ الثأر بنفسه، ولكن ما كان له أن يسكت عن هذه المجزرة بحق المسيحيين. فكتب من أجل "دوس" رسالةً إلى ملك الحبشة الذي كان تابعا له يأمره فيها بالاهتمام بما حدث وأخذ الثأر للضحايا. وكان بين الحبشة واليمنِ البحرُ الأحمر الذي كانت السفن تعبره عندها في يومين أو ثلاثة، أما اليوم فتعبره خلال بضع ساعات. وكان يطلق على ملوك الحبشة اسم النجاشي (Negus). وكان اسم الملك الحبشي آنذاك هو أصمحة بن بحر، وهو نفس الملك الذي هاجر إليه بعض صحابة النبي ﷺ في زمنه، والذي ورد أنه أسلم في آخر حياته. لقد وقع هذا الحادث في عهده (أردو دائرة معارف إسلامية، تحت كلمة: نجاشي)، وإليه بعث قيصر الروم رسالته لإغاثة دوس ذو ثعلبان.

فبعث النجاشيّ اثنين من قوّاده مع جيش جرار إلى اليمن، أحدهما أرياط والآخر أبرهة بن الصباح، ويكنى بأبي يكسوم (تفسير ابن كثير). وكانت العادة في الإمبراطورية الرومية والدول التابعة لها أن يبعثوا في كل مهمة اثنين من القواد بل من الطغاة، فمثلاً كان والدُ كليوباترا قد عيّنها وأخاها ملكين من بعده، فتزوّجَها طاغية روميّ (الموسوعة البريطانية، تحت كلمة: Cleopatra)، فقُتل أخوها نتيجة

الخلاف الذي حصل على المُلك. وكان هؤلاء الملوك يبعثون قائدينِ في المهمات مخافة أن يتمرد عليهم القائد الواحد، ولكن لو بعثوا اثنين فيكون أحدهما مراقبًا للآخر، ويكون مواليًا للمِلك ومحافظا على حكمه، وهكذا لن يحدث فساد. مع أن مِن غير الطبيعي تماما أن يكون لقوم مِلكانِ. غير أن هذا الأمر استمر فيهم مدة طويلة.

وكان أبرهة بن الصباح أبيض البشرة (السيرة النبوية لابن هشام). علمًا أنه كان في الحبشة في تلك الأيام عِرقان: أسود وأبيض، وكانت الأسرة الملكية من العرق الأبيض، وكانوا في الواقع من شعب النوبَة الذين كانت لهم دولة قوية في القديم امتد سلطانها حتى أوروبا وآسيا، وكان وطنهم جنوب مصر والسودان، وكانوا من العرب أصلا ومن سكان الجزيرة العربية في الواقع (تاريخ الحبشة ص ٧،٩، أردو دائرة معارف إسلامية، تحت كلمة: نوبه)، و لم يزل حكمهم يمتدّ حتى استولوا على الحبشة؛ ولذلك نجد أن لغة الحبشة كانت تُعتبر لهجةً من العربية حتى في زمن قريب من النبي ﷺ، إذ توجد في القرآن الكريم عشرات الكلمات من اللغة الحبشية، وليست من العربية التي يتكلم بها عرب الجزيرة، إلا أن العرب ضمّوها إلى لغتهم لكثرة اختلاطهم واتصالهم بالحبشة. إذًا فكان النوبيون بيضًا -نسبيا- لكونهم من العرب، وكان أبرهة أيضا أبيض اللون، ويبدو أنه كان من العائلة المالكة.

باختصار، شن القائدان الحبشيان الهجوم على اليمن بجيش عظيم وهزما الدولة الحميرية وأقاما الحكم الحبشي المسيحي في اليمن. وبعد فترة شبّ الخلاف بين القائدين أرياط وأبرهة، وكان ذلك أمرًا طبيعيًا إذ كانا يتمتعان بنفس القوة والسلطة، فلم يتوصلا إلى اتفاق، وقرّرا الحرب، واصطفا بجنودهما. والقاعدة أن الأمة تفضّل المصالح العامة على المصالح الفردية ما دامت تتمتع بالتعقل والحياة، وإذا أصابها الانحطاط آثر أبناؤها المصالح الفردية على مصالح الأمة. وكان الحبشيون في اليمن لا يزالون يتمتعون بالتيقظ والتعقل الذي دفعهم للحفاظ على مصالح أمتهم، فلما اصطف الطرفان فكّر القائدان وقالا إن الحرب ليست إلا بيننا نحن الاثنين، فلماذا نسفك دماء القوم كلهم، فتحارُب الطرفين سيقضي على حكم النجاشي في

اليمن، فقرّرا تأجيل القتال للتفاوض، فأعلنا أنّ الحرب سوف تضر بشعبنا فعلينا أن نتبع ما نتوصل به إلى حلّ الخلاف دون الإضرار بالأمة. وبعد اللقاء والتفاوض قرر القائدان أن يتقاتلا، فمَن قتل الآخر نال الحكم. فتبارزا بعد أن أمرا جنودهما بعدم التدخل، فعاجلَ أرياطُ أبرهةَ بضربة أصابت أنفه وأذنه وخدّه، وكان أحدُ عبيد أبرهة –الذي كان يحبه لدرجة العشق– يراقب قتالهما عن كثب مختفيًا وراء حجر، فلما رأى سيّده قد سقط صريعًا لم يملك نفسه، وفيما كان أرياط يستعدّ للإجهاز على أبرهة خرج هذا العبد من وراء الحجر، فطعن أرياط بالخنجر فقتَله. فصار المنتصر ميتًا، وأصبح المهزوم حيًّا. وبعد أيام شفي أبرهة من جروحه وصار ملِك اليمن كله.

ولما بلغ النجاشيَّ أن أحد قائدَيه قد حمل على الآخر وقتله، حزن حزنًا شديدًا. وكان النجاشي شريفا بفطرته، بل الثابت من الشهادات التاريخية أن أبرهة أيضًا كان حليم الطبع (جامع البيان)، وأن ما فعله ضد مكة إنما فعله لأسباب سياسية كما سأوضح لاحقا. فغضب النجاشي وأقسم أنه سيأخذ بثأر القتيل من أبرهة، فيدوس مُلكه تحت الأقدام ويجزّ ناصيته، وذلك بحسب عادة الملوك في القديم، فإنهم إذا أرادوا إهانة شخص جرّوه من شعر ناصيته. فسمع أحد أصدقاء أبرهة مقالة النجاشي، فأبلغه أن النجاشي سوف يشنّ الهجوم على اليمن بسبب ما فعلت وسوف يعزلك. وكان أبرهة ذكيا، فدعا أحد الحلاقين وأمره بقص شعر ناصيته، ثم طلب كيسًا ملأه بالتراب، ثم بعث الشعر والتراب إلى النجاشي برسالة يعتذر إليه طالبًا العفو عنه، وموضحًا الأسباب التي كانت وراء قتالهما وقال: إن التقصير منّا نحن الاثنين، غير أن ما حصل لم يكن وراءه خداع، وإنما اتفقنا بعد التروّي والتفكير أن مَن يقتل الآخر يصير حاكما على اليمن، فلو قُتلت لتولى هو الحكم، ولكنه قُتل فصار الحكم إليّ بحسب القرار المتفق عليه، فليس فيما حصل أي خداع أو مباغتة. كما كتب إلى النجاشي: بلَغني أنك حلفت بجزّ ناصيتي، فها أنا أبعث إليك بشعر ناصيتي بَرًّا بقسمك، كما بلغني أنك حلفت أنك ستدوس أرض اليمن بقدميك، فها أنا باعث لك تراب اليمن في كيس فيمكنك أن تدوسه برًّا بيمينك،

أما أنا فإني رهنُ إشارتك وطَوْعُ أمرك وفخور بأني من عبيدك. فأُعجب النجاشي بفعل أبرهة، فكتب إليه: قد عفونا عنك وجعلناك واليا على اليمن. (السيرة النبوية لابن هشام، وتفسير ابن كثير)

ولما بلغ أبرهة أن الملك قد عفا عنه فرح فرحا كبيرًا، ونذر أن يبني في اليمن كنيسة كبيرة جميلة لا مثيل لها في تلك البقعة. فكتب إلى النجاشي يعبّر عن شكره وامتنانه على عفوه عنه وتعيينه واليا على اليمن، وقال: سأبني الآن كنيسة كبيرة عديمة المثال في هذه البلاد فرحًا وشكرًا على منّتك هذه. فدعا المعماريين والبنائين والمزخرفين من أقاصي البلاد وجمَع أفضل أنواع الخشب والمواد، وبنى كنيسة عظيمة عالية إذا نظر إليها الإنسان سقطت قلنسوته، ولذلك سماها العرب قُلَّيسًا (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج١ ص ٨٣).

ولم يكتف أبرهة ببناء الكنيسة، بل سعى لأن يحجّها العرب بدلاً من الكعبة المشرفة ويتخذوها مركزا ومرجعا لهم (تفسير ابن كثير).

والآن سأذكر الموضوع الذي قد فتحه الله عليَّ خاصةً في هذا العصر، ولم يفتحه على أي مسلم قبلي خلال ثلاثة عشر قرنا، وهو أن سورتَي الفيل وقريش كلتيهما تكشف أن أعداء النبي ﷺ وأنصاره كلهم كانوا قد أخذوا أهبة الاستعداد لاستقبال النبي ﷺ قبيل بعثته، بل قبيل ولادته؛ أعني أن كل واحد من الحزبين كان ينتظر ظهوره، كلٌّ بأسلوبه. وكما يقول المثل: "الديك الفصيح من البيضة يصيح"، كذلك فإن الأنظار تتوجه دومًا منذ البداية إلى من قُدِّر له الرقي والازدهار. هذا مثلٌ ابتدعه أهل الدنيا، غير أن من سنة الله تعالى المستمرة أيضا أن الناس يأخذون في الحديث عن كل مبعوث رباني قبيل مجيئه، ويقولون بأنه قد أوشك بعثُ الموعود من عند الله تعالى. وإن لم يقدر أحد على إدراك هذه السنة الإلهية برؤية أحداث الماضي فلينظرْ إلى ما حصل في هذا الزمن، حيث نرى أنه قبل بعثة المسيح الموعود والمهدي عليه السلام بمائة سنة تقريبا قد تنامى عند الناس إحساس عام بظهوره عما قريب. وبالمثل قد تولد هذا الإحساس عند الناس قبل بعثة النبي ﷺ أيضا، ولم يوجد هذا التوجه عند أمة واحدة فقط، بل وُجد لدى اليهود والنصارى والعرب كلهم،

إذ قالوا: لقد قرب الآن ظهور إنسان عظيم في الدنيا. كان العرب يرون أنه قد أوشك ظهور الشخص الذي وُعدنا به في دعاء إبراهيم، وكان النصارى يرون أن "الفارقليط" أو ذلك النبيّ الذي أُخبر بمجيئه قد قرب ظهوره، وكان اليهود يروْن أنه قد قربت بعثة ذلك النبي الذي يكون مثيلاً لموسى ويحرّرهم من العبودية.

علمًا أن اليهود توقعوا عندها أن ظهور ذلك الإنسان المقدس الموعود في الصحف وشيك، مع أن الأنباء عن ظهوره كانت موجودة في صحفهم منذ زمن موسى الذي كان قد أنبأ بنفسه أن مثيلا له سيظهر في يوم من الأيام حاملاً شريعة نارية (التثنية ٣٣ : ٢). فما دام هذا الأمل لم يكن جديدا، فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا لم يترقبوا ظهور النبي الموعود في زمن داود أو سليمان أو زكريا أو حزقيال عليهم السلام؟ لا شك أن الإحساس بظهور هذا الموعود كان موجودًا فيهم إلى حد ما في زمن المسيح عليه السلام، حتى سألوه: أأنت المسيح، أم إيليا، أم ذلك النبيّ (يوحنا ١ :١٩-٢١)، غير أنه اشتدّ وصار قويًا في زمن الرسول ﷺ خاصة. وكما قلت إن من سنة الله تعالى أن يتولد الإحساس في طبائع الناس عامةً بمجيء الموعود قبيل ظهوره، فترتفع إليه الأصابع، وقد توصلتُ بالتدبر في هذه السورة إلى أن الإحساس بظهور هذا الموعود كان قد تنامى لدى الناس قبيل بعثة النبي ﷺ، إذ كانوا يترقبون ظهور شخص عن قريب. فهذا الإحساس كان عند العرب، إذ كان إبراهيم عليه السلام قد تنبأ ببعثة نبي في مكة، وهذا البحث كان في قلوب اليهود أيضا، لأن موسى عليه السلام كان قد أخبرهم ببعثة نبي مثله، وهذا الأمل كان عند النصارى أيضا، لأن المسيح عليه السلام كان قد أخبرهم أن الروح الكامل (روح الحق) سيأتي قبل عودته وسيكشف الحقائق كلها (يوحنا ١٦: ١٢-١٣). إذن، فكان النصارى يأملون بظهور الروح الكامل من عند الله تعالى، وكان العرب يأملون بظهور نبي العرب، وكان اليهود يأملون بظهور مثيل موسى (التثنية ١٨: ١٨)، وقد قوي هذا الإحساس عندهم لدرجة أن كل أمة كانت تتحدث عن هذا الأمل بكل حماس، بل كانت تعلن بكل فخر أن نبينا يأتي قريبًا لينتقم من أعدائنا. وهذا ما نراه في هذا العصر حيث ظهر كثيرون ادعوا بالمسيحية في أمريكا وإنجلترا أو أعلنوا بأنهم جاءوا

ليجعلوا المسيحية غالبة، كما ظهر بين المسلمين العديد الذين ادعوا بالمهدوية، وليس ذلك إلا لأن ظهور المسيح والمهدي كان قد اقترب، وكان هناك هياج عام في العالم بهذا الشأن. وكما أن الرياح تسبق الأمطار إيذانًا بأن السحب آتية وأن السماء ممطرة، كذلك يحدث في العالم اتجاه عام قبيل بعثة المأمورين الربانيين، فيدّعي كثيرون أنهم مبعوثون من عند الله تعالى. وكان هذا الاتجاه قد جرى قبيل بعثة الرسول ﷺ، فكان العرب إذا اجتمعوا في نواديهم قالوا إن النبي الموعود في الدعاء الإبراهيمي على وشك الظهور، وكان اليهود إذا حضروا مجالسهم ذكروا أن الأمارات تنبئ أن ظهور مثيل موسى وشيك، وكان النصارى إذا اجتمعوا في مجالسهم قالوا إن الأنباء التي أدلى بها المسيح على وشك التحقق (السيرة النبوية لابن هشام). كانت كل واحدة من الأمم تظن أن موعودها سيكون غير موعود الأمم الأخرى، مع أنه كان شخصًا واحدًا، فإن الموعود الذي تنبأ عن مجيئه إبراهيم هو نفسه الذي أنبأ عن ظهوره موسى، والموعود الذي تنبأ عن ظهوره موسى هو نفس من تنبأ بظهوره إبراهيم وعيسى، والموعود الذي تنبأ عن بعثته عيسى هو نفسه مَن بشر به إبراهيم وموسى. فالحق أن الموعود كان شخصا واحدا، لكن كل أمة ظنت بناءً على ما عندها من أنباء أنه سوف يُبعث عندها، وسيقضي على الأمم الأخرى. فكان النصارى حين يسمعون أن اليهود يأملون بظهور موعود بينهم للنهوض بهم، قالوا: لا شك أن هذا الموعود سيأتي حتما، ولكنه لن يأتي من بين اليهود كما يتوقعون، بل سيظهر بيننا. كذلك عندما تنامى الإحساس عند أهل مكة أن مبعوثا ربانيا على وشك الظهور بين العرب تحقيقًا لدعاء إبراهيم عليه السلام، كان النصارى يقولون: صحيح أنه سيأتي حتمًا، لكن ترقُّب العرب له خدعة سياسية؛ إذ كانوا يخافون أن يقوم بين العرب شخص يتّحدون على يده فيستولون على البلاد. وهذا كما حصل قبيل بعثة المسيح الموعود عليه السلام، بل في زمنه أيضًا، فكلما سمع الإنجليز وغيرهم من أهل الغرب أن أحدًا من المسلمين قد ادعى بالمهدوية؛ قاموا لملاحقته فورا (الموسوعة الأردية تحت كلمة: مهدي)، مع أن هناك أمثلة كثيرة في إنجلترا وأمريكا؛ حيث ادعى العديد من المسيحيين بأنه المسيح أو إرهاص له، ولكنهم لم

يضيقوا منه ذرعًا، بل فرحوا قائلين: إذا كان كذابًا فلا حاجة بنا للتعرض لـــه إذ سيهلك تلقائيا، وإذا كان صادقًا فيُعَدّ هذا انتصارًا للمسيحية في العالم ويكـــون في هذا مصلحتنا. ولكن إذا تولّد عند المسلمين الإحساس بأن هذا الموعود ســـيظهر بينهم، فيقول المسيحيون أن هذه مؤامرة سياسية لإضعاف المسيحية. هذا الإحساس نفسه كان عند المسيحيين قبيل بعثة الرسول ﷺ. علمًـــا أن اليهـــود لم يكونـــوا حاكمين، ولذلك كلما سمعوا أن العرب أو النصارى يترقبون موعودا ربانيا يُبعث بينهم، تميزوا غيظا وقالوا: لو كان الحكم بأيدينا لأخبرناهم أننا لا نحتمل أفكارهم هذه. وبالمثل عندما كان العرب يسمعون أن كلاًّ من اليهود والنصارى ينتظـــرون بعثة هذا الموعود فيهم، فكانوا أيضا يحترقون كمدا، أما النـــصارى فكـــانوا ذوي حكم وقوة ويروْن أنهم يستطيعون القضاء على هذه الأفكار بالقوة، كما هو الحال اليوم فكلما ظهر مدّعٍ للمسيحية بين الغرب لا يستطيع المسلمون القضاء عليه، مع أنهم يعتبرونه عدوًّا لهم، ولكن النصارى إذا وجدوا مدعيًّا بالمهدوية بين المـــسلمين سارعوا إلى القضاء عليه. ففي زمن رسول الله ﷺ عندما كان النصارى يـــرون أن العرب يفكرون بأن هذا الموعود سيظهر بينهم وأن اليهود يرون بأن هذا الموعـــود سيبعث منهم، فكان إحساسهم بالعداء يدفعهم للتصدي لهم؛ إذ كانوا يعتـــبرون هذه الأفكار مؤامرات سياسية لإضعاف المسيحية. فلذلك فكّر "أبرهة" أن الكعبة يمكن أن تكون سببًا لاتحاد العرب كلهم على يد واحدة، ثم إن عندهم إحـــساسًا قويًا أنه قد حان وقت نهوضهم وتقدُّمهم في العالم، إذ قرب أن يبعـــث الـــشخص الموعود في دعاء إبراهيم. لا شك أن المسيحيين كانوا يعتبرون مثل هـــذا المـــدعي كاذبا، لكنهم أدركوا أن ظهور هذا المدعي -وإن كان كاذبا- ســـوف يـــشكّل تهديدا لهم، لا سيما وأن هناك سببًا لاتحادهم على يد واحدة، إذ يعظّمون الكعبـــة باعتبارها مكانا مقدسا، فظهور هذا الموعود يزيد العرب اتحادًا وبالتالي يُقضى على الحكم المسيحي في الجزيرة العربية.

علمًا أنه كانت في الجزيرة دولتان مسيحيتان؛ إحداها في اليمن، والأخـــرى في شمال المدينة المنورة؛ إذ كان القيصر الرومي قد احتل المنطقة الممتدة من فلسطين إلى

نحو مائتي ميل شمال المدينة وأرسى بها حكمه (تاريخ العرب قبل الإسلام ج٢ الفصل ٣٣: ساسانيون وبيزنطيون). وكانت تلك المنطقة وكذلك اليمن من المناطق المتمدنة، إذ وجدت بها الغلال والمعادن، كما كانت بين أهلها والفرس والروم تجارة واسعة، فاستولى المسيحيون على كل هذه المناطق المتمدنة خاصة، تاركين ما بينها من أراض.

فعندما تنامى الإحساس عند العرب بقرب زمن بعثة النبي الموعود لهم وظهرت عندهم آثار النهضة، فكّر المسيحيون أن العرب لو اتحدوا فسوف يخرجونهم من اليمن ومن شمال الجزيرة أيضا. ويبدو أن أبرهة فكّر في استغلال الكنيسة التي بناها في اليمن سياسيا، ليهوِّن من شأن الكعبة في نظر العرب ويحوِّلهم عنها إلى كنيسته، محقّقًا بذلك فائدتين: انتشار المسيحية، والحيلولة دون اتحاد العرب، إذ لن يبقى عندهم بيت واحد يجتمعون فيه، فلو قام بينهم أي مدّعٍ مستقبلا، فلن يستطيع تكوين حكومة بسهولة. هذا ما حدا بأبرهة إلى هذه الخطة في رأيي. إن الكنائس تُبنى في العالم دائما، ولكن لم يستغلّ أحد أي كنيسة بهذا الشكل، أما أبرهة فالثابت تاريخيا أنه أعلن في المملكة كلها أن يأتي العرب لزيارة كنيسته "القُلَّيس" مستقبلا (تفسير ابن كثير)، ثم تنفيذًا لخطته دعا كبار رؤساء العرب ووعدهم بالجوائز الجزيلة وأمرهم أن يحثّوا العرب على حجّ كنيسته في صنعاء بدلاً من الكعبة. إن دعوة أبرهة هذه دليل واضح على أن كل العملية كانت مؤامرة سياسية، وإلا فهناك آلاف الكنائس في العالم، ولكن لماذا لم تصدر مثل هذه الدعوة بشأن أي منها؟

ثم هناك أمر آخر، وهو أنه مما لا شك فيه أن الكنيسة التي بناها في اليمن كانت ذات أهمية لأهل اليمن، ولكنها لم تكن ذات قيمة إزاء الكنائس الموجودة في الحبشة التي كان أبرهة تابعًا لحاكمها وواليا من قبله؟ فمع أن تلك الكنائس كانت أكبر وأعظم من كنيسته، إلا أن دولة الحبشة لم تسعَ قط لكي يتوجه العرب إلى كنائسها تاركين حج الكعبة. ثم ما بالك عن آلاف الكنائس في شتى أنحاء الإمبراطورية الرومانية القوية المترامية الأطراف؛ إذ بلغت من القوة أن كانت دول

الحبشة واليمن والشام وفلسطين وأنطاكية واليونان وغيرها من البلاد كلها تابعة لها، ولا جرم أنه كانت فيها كنائس عظيمة رائعة، ومع ذلك لم تحاول هذه الإمبراطورية قطّ أن تجبر الأمم الأخرى على أن تعتبر كنائسها مقدسةً وتأتي لزيارتها. فلماذا فعل أبرهة هكذا في اليمن يا ترى؟ إنما سببه أنه أراد أن يقلّل من حرمة الكعبة المشرفة عند العرب، إذ وجد عندهم شعورًا متناميًا عن ظهور نبي بينهم، ففكر أنه لو اجتمع هذان الأمران–أي تعظيم الكعبة وظهور مدّعٍ بينهم– فلا بد أن يستتبّ حكم العرب ويُقضى على حكمه. هذا الإحساس هو الذي دفعه إلى هذا الإعلان.

وقد ورد في بعض الروايات أن أبرهة لم يكتفِ بهذا الإعلان في مملكته فحسب، بل أخبر النجاشي أيضا أنه يريد صرف العرب عن الكعبة إلى كنيسته في صنعاء، وأن العرب قد علموا بأنه قد بعث رسالة كهذه إلى النجاشي (جامع البيان للطبري). وعندي أن النجاشي لم يكن مؤيدا لخطة أبرهة، وأغلب ظني أن أبرهة لم يكشف له خطته بالتفصيل، وإنما أبلغه الأمر مجملا، حتى إذا وقعت فتنةٌ بعد ذلك لم يغضب عليه الملك قائلا: لماذا لم تخبرني بخطتك؟ فقال للملك أنني أنوي –من أجل تعريف العرب على المسيحية– أن أعلن بينهم أن يتوجهوا إلى كنيسته " القُلَّيس" في صنعاء بدلاً من الكعبة. ولما علم العرب برسالته إلى النجاشي وإعلانه في مملكته أن يأتي الناس لزيارة كنيسته بدلاً من الكعبة، ثارت ثائرتهم وأدركوا أن الأمر ليس عاديا، فالكنائس تبنى في العالم دائما، وإذا كان أبرهة ذا مال وقد شيد بمساعدة بنّائين مهرة بناءً رائع الجمال والزخرفة بخشب غالٍ فهل يعني هذا أن يخبر الملكَ النجاشي بذلك ويخبر أنه ينوي أن تصبح كنيسته الآنَ مرجعا للعرب أيضا؟ فلا شك أنها كانت مؤامرة سياسية.

وكان طبيعيا أن يثور على ذلك أصحاب العقول السياسية والنزعة الدينية من العرب، فالجميع أحسوا أن هذه إساءة كبيرة للكعبة، وكان هذا الحماس على أشده في قريش خاصة.

عندما انتشر هذا الخبر على نطاق واسع ذهب أحد العرب إلى صنعاء ويبدو أنه لم يكن شهيرا بل كان شخصا عاديا، وربما كان رئيس قبيلة. ولما كانت الحكومة اليمنية منظَّمة، فكان العرب يأتون إلى عاصمتها صنعاء من أجل حاجاتهم وقضاياهم. فحصل هذا العربي بطريق أو آخر على السماح بالمبيت في كنيسة " القُلَّيس" -علمًا أنه لا يوجد في الكنائس الأوروبية غرف للمبيت، لكنها توجد في الكنائس الآسيوية- فبات هذا العربي في غرفة من غرف الكنيسة. وكما هو من دأب الرعاع فإنه فكّر تفكيرًا سيئًا، -وإن كان كل ذلك بحكمة من الله تعالى- فتغوّط في الكنيسة في مكان العبادة بالضبط، وهرب.

وفي رواية لابن جرير عن ابن إسحاق أن أبرهة لما أبلغ النجاشيَ بأنه لن يبرح حتى يجعل هذه الكنيسة مرجعا للعرب كلهم وشاع هذا الخبر بين الناس، غضب عربي من قبيلة "النُّسْأة" من بني فقيم -وهم فرع من بني مالك- وذهب إلى صنعاء، وتغوّط في الكنيسة. ولما جاء الكنّاس في الصباح لكنس الكنيسة وجد البراز في مكان العبادة، فأبلغ المسؤولين، فكتبوا لأبرهة أن شخصا قد تغوّط في كنيستنا المقدسة، ويبدو أنه عربي، لأن أحد العرب كان قد استأذن للمبيت فيها ثم غاب في الصباح، ويبدو أن قريشا وراء هذه الفعلة؛ لأنهم مغتاظون أنك جعلت معبدًا مقابل معبدهم. فجُنّ جنون أبرهة بسماع ذلك، وامتلأ كرهًا وحقدًا على مكة، وفي رواية أنه حلف بأنه سيهاجم مكة ويدكّ الكعبة دكًّا (جامع البيان للطبري، وتفسير ابن كثير).

ثم تلت ذلك أحداث زادت أبرهة شعورًا بأنّ كنيسته في صنعاء لا يمكن أن تزدهر ما دامت هناك الكعبة.

وفي رواية أخرى سجلها مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش ذهبوا إلى صنعاء وأشعلوا النار لبعض شأنهم قريبًا من هذه الكنيسة، فتصادف ذلك هبوب ريح عاصف، فأصاب شرر النار الكنيسة، فاحترقت في لمح البصر (تفسير ابن كثير). وكانت مبنية من الخشب أساسًا على ما يبدو، وكان الخشب مطليًّا بالزيوت

والدّهان بكثرة كما هو الثابت من التاريخ (روح البيان)، مما ساعد على تـأجُّج النار فيها بسرعة.

على أية حال، احترقت الكنيسة بقدر من الله تعالى؛ ففي بعض الروايات أنها احترقت كلها وفي روايات أخرى أنها احترقت جزئيًا (ابن كثير والبغوي)، ممـا زاد أبرهة اقتناعًا أنه من المحال أن يقدس العرب كنيسته مـا دامـت الكعبـة موجودة. ومن غرائب الصدف أن الذين تسببوا في احتراق الكنيسة كانوا عربًا، وأن الذي تغوّط فيها كان أيضا عربيًّا. نحن لا نستطيع الجزم فيما إذا كانوا قـد أضرموا النار لحرق الكنيسة عمدًا، لأن الثابت من التاريخ أنهم أوقدوها لحاجـة لهم، فتطايرَ شررها بهبوب الريح العاصف، فاضطرمت النار في الكنيسة. على أية حال، كان الأمر صدفة من الصدف التي تقع يوميا، إذ لا أحد يأخذ عهدًا مـن الرياح بأن تهبّ بشدة عندما يوقد النار. ولكن لما كـان حـادث التغـوّط في الكنيسة قد سبق حادث اضطرام النار فيها، ازداد الوالي أبرهة اقتناعًا بأن كـل الذي حصل إنما حصل بنية شريرة، فازداد بغضًا وكراهة لمكة. فـدعا بعـض زعماء القبائل العربية للقائه سعيًا منه لصرف العرب إلى كنيسته "القُلَّيس" بـدلاً من الكعبة من دون أي هجوم عليها. فحضر إليه زعيمان من قبيلة خزاعة؛ وهما محمد وقيس، فوعدهما بمكافأة جزيلة على أن يسيروا بين العرب لإقناعهم بـأن يتخذوا كنيسته في صنعاء مركزًا لهم بدلاً من الكعبة، ويحجّوا إلى "القُلَّيس" بدلا من الكعبة المشرفة. لم يكن هذان الزعيمان مسيحيين، ولكن يوجد في كل أمـة مداهنون منافقون كما شاهدنا ذلك أيام حكم الإنجليز، فكثير مـن المـسلمين كانوا مداهنين لهم، وعملوا لهم مقابل الإغراءات. فرضي هذان الزعيمان العربيان بالسير بين القبائل العربية، وتوجها نحو الشمال إلى مكة رأسًا بعد أن أخذا مـن أبرهة الوعود المغرية والتعليمات اللازمة. فأخذا يجمعان الناس في كـل مكـان وينصحانهم بالتوجه إلى كنيسة صنعاء بدلاً من الكعبة، فإن هذا يساعدهم على إنشاء علاقات طيبة مع الشعب الحاكم على اليمن، مما يجعلهم يزدهرون بسرعة. حتى وصلا إلى أرض بني كنانة، ولما علم أهلُ تهامة -أي مكة وما حولهـا- أن

أبرهة قد بعث زعيمين عربيين بدعاية أن يترك العرب الكعبة ويتخذوا كنيسته في صنعاء مركزا لهم، بعثوا لتحرّي الأمر عروةَ بن حياض زعيمَ هذيل (جامع البيان للطبري).

لا شك أن العرب كانوا وثنيين يعبدون الأصنام، إلا أنهم كانوا يعظّمون الكعبة تعظيمًا كبيرًا، ثم إن معيشة أهل مكة كانت منوطة بالكعبة تمامًا، وتوجُّهُ الناس إلى غيرها لن يجرح مشاعرهم الدينية فقط، بل سيقضي على مكانتهم السياسية، ولذلك سارعوا إلى تحرّي الأمر حتى يتحدوا فيحولوا دون دعاية محمد بن خزاعي وصاحبه. فذهب عروة بن حياض الهذلي، فوجد محمد بن خزاعي يقوم بدعايته ضد الكعبة، ففكّر الهذلي أن لا حاجة به الآن لاستشارة الآخرين، فوضع في قوسه سهمًا وأصاب به صدر محمد بن خزاعي. فهرب أخوه قيس بن خزاعي، وأبلغ أبرهةَ أن رسوله محمد بن خزاعي قد قُتل خلال رحلته بين العرب وهو يحثّهم على تنفيذ خطته (جامع البيان للطبري).

علمًا أنه كانت عند العرب فكرة عامة أن الرجل الموعود الذي هو معقد آمالهم سيكون اسمه محمدا، فلعل أبرهة قد اختار محمد بن خزاعي بسبب هذه الرواية الشائعة بين العرب، حتى إذا سمعوا هذه الدعاية مِن فمه ظنوا أنه هو الشخص الموعود، وأن هذه هي الحركة التي ستحقّق آمالهم.

على أية حال، فقد زاد هذا الحادث أبرهةَ غضبًا على غضب، فأيقن أن كنيسته لن تحظى بالقبول عند العرب ما دامت الكعبة موجودة.

وهناك رواية في ابن أبي حاتم وحلية أبي نعيم ولكنها لا تبدو محلّ ثقة عندي، إذ ورد فيها أن أكسوم بن الصباح الحميري –وهو ابن بنت أبرهة– ذهب لحج الكعبة المشرفة، فنهبه العرب في الطريق وقتلوه، كما نهبوا الكنيسة التي كان مقيمًا فيها، مما دفع أبرهة للهجوم على مكة.

وبالمناسبة يتضح من هذه الرواية أن أبرهة كان قد زوَّج ابنتَه من شخص ينتمي إلى العائلة التي كانت تحكم اليمن سابقا، والتي كان أبرهة وأرياط قد قضيا على حكمها وأقاما مكانه دولة مسيحية في اليمن.

إن أول ما يدحض هذه الرواية هو أنه لم يكن من عادة المسيحيين تزويج بناتهم من غيرهم. ولو قيل: لم يكن ابن بنت أبرهة تابعًا لدين العرب بل كان مسيحيا، فأقول: فلماذا ذهب إلى حج الكعبة إذن؟ وإذا لم يكن مسيحيا فالمعلوم أن المسيحيين لم يكونوا يزوِّجون بناتهم لغيرهم، لا سيما العائلات المسيحية الكبيرة، إذ كانت تأخذ الحذر الشديد بهذا الشأن. فثبت أن هذه الرواية غير جديرة أن يعتدّ بها بناءً على شهادتها الداخلية.

وعندي أن هذه الرواية اختُلقت بتأثير مسيحي، إذ لا توجد بين الروايات المذكورة أعلاه أيةُ رواية تمنح أبرهة مبررًا سياسيا للهجوم على مكة، أما هذه الرواية فتبيح له ذلك، فما دام حفيده قد قُتل في الطريق، فمِن حقّه السياسي حتمًا أن يهاجم أهل البلد الذين قتلوه. فأرى أن هذه الرواية قد وُضعت بتأثير مسيحيّ لإثبات أن أبرهة كان محقًّا في هجومه على مكة. فالواقع أنه لم يكن هناك مبرر شرعي ومعقول للهجوم على مكة، مما كان يعرِّض المسيحيين للنقد الشديد، فاختلقوا هذه الرواية ليوهموا الناس أن أبرهة لم يقم بهذه الحملة من دون مبرر، بل قد تمتْ إثارته سياسيا، فكان له الحق كله للهجوم على العرب.

ثم إن فحوى هذه الرواية يتنافى مع العقل؛ إذ قيل فيها أن زوج بنت أبرهة كان من العائلة الحميرية الحاكمة على اليمن سابقًا، ولكن الثابت تاريخيًا أنه لم يكن لأبرهة أية صلة باليمن من قبل، وإنما أرسله النجاشي قائدا على جيشه لفتح تلك المنطقة، فكان حديثَ العهد باليمن، فإذا كان قد زوّج ابنته في اليمن فلا بد أنه قد زوّجها بعد وصوله إليه، وتقول الرواية إن ابنته رزقت ابنًا، ولا شك أنه ذهب للحجّ بعد أن كبر وشبّ، وحينها نَهَبه العرب في الطريق، فيمكن القول إن عمره عندها كان نحو ٢٠ أو ٢٢ سنة. ثم إن أبرهة لم يستولِ على بلاد اليمن كلها بمجرد وصوله إليها، بل لا بد أن هذه العملية استغرقت بضع سنوات. ثم يخبرنا التاريخ عن نشوب الخلاف بينه وبين القائد الآخر أرياط، حتى تحاربا، وصار أبرهة الملك الوحيد على اليمن بعد قتل الآخر، ولا بد أن تكون كل هذه الخصومات قد استغرقت قرابة ثلاث سنوات. وأما البحث عن زوج لابنته فلا بد أنه استغرق سنة

أو سنتين؛ لأن المرء لا يستعجل في تزويج بنته من الغريب. وبعد الزواج وُلد عند ابنته هذا الشاب الذي ذهب للحج في سنّ ٢٢ عاما تقريبا. لو قلنا إن إلحاق أبرهةَ الهزيمة بالملك الحميري وإرساءه السلام في اليمن استغرق ثلاث سنوات على الأقل، ثم لو كان البحث عن زوج لابنته بين الغرباء قد استغرق سنة، ولو كان ابن ابنته ذهب للحج في سن ٢٢ عاما، فيصير المجموع ٢٦ سنة، مما يعني أن أبرهة خطط للهجوم على الكعبة المشرفة بعد ٢٦ سنة من مجيئه إلى اليمن، لكن التاريخ يخبرنا أن النجاشي -الذي وقع هذا الحادث في عهده- هو نفسه الذي أسلم في زمن النبي ﷺ ومات على إسلامه، وقد أعلن النبي ﷺ دعواه في الأربعين من عمره (البخاري، كتاب المناقب)، وقد هاجر المسلمون إلى الحبشة بعد خمس سنوات من دعواه، مما يعني أن المسلمين وصلوا إلى الحبشة وسنّ الرسول ﷺ ٤٥ سنة. ومكث الرسول ﷺ ثماني سنوات أخرى في مكة، ولكن النجاشي لم يؤمن عندها، ولو جمعنا هذه السنوات الثماني إلى ٤٥ سنة لصار ٥٣ عاما، وبعدها هاجر النبي ﷺ إلى المدينة. وفي السنة الثامنة الهجرية بعث ﷺ الرسائل إلى مختلف الملوك ومنهم النجاشي، وهذا يعني أن الرسول ﷺ قد بعث رسالته إلى النجاشي التي أسلم بسببها وهو ﷺ في ٦١ من عمره، وتوفي النجاشي بعدها بستة أشهر (شرح المواهب اللدنية: ج٥ ص ٢٥). وإذا جمعنا الـ ٦١ سنة إلى ٢٦ سنة التي قضاها أبرهة في اليمن حتى حادث الفيل، لصار المجموع ٨٧ سنة، ولو أضفنا فترة حكم النجاشي قبل أن يبعث أبرهة إلى اليمن، ثم عمر النجاشي قبل توليه الحكم وهي ما بين ٢٥ إلى ٣٠ سنة، فيكون عمر النجاشي عند وفاته ١١٢ إلى ١١٧ سنة، وهذا عمر غير طبيعي إطلاقا، ولا يمكن أن يصدقه العقل ما لم يؤكده التاريخ تأكيدا قطعيا.

إذن، فهذه الرواية ساقطة تماما من حيث الدراية والعقل، ولذلك أرى أن النصارى قد اختلقوها فيما بعد، فسجّلها المفسرون في تفاسيرهم لسذاجتهم المعتادة؛ إذ كانوا يضمّون إلى تفاسيرهم الغث والسمين دونما فحص ونقد. لقد اختلقها بعض النصارى وأوصلوها إلى بعض المسلمين المرموقين، فأدخلها المفسرون في تفاسيرهم من دون تحرّي الحقيقة ومن دون أن ينتبهوا أنها اختُلقت لتبرير هجوم

أبرهة، إيهامًا للناس أن لهجومه على الكعبة مبررات سياسية، و لم يكن هجومًا غير شرعي.

والرواية التي تقول بتغوّطِ أحد العرب في كنيسة "القُلَّيس"هي الأوثق والأكثر رواجًا بين هذه الروايات الثلاث. أما رواية احتراق الكنيسة فهي أقل رواجا منها، وأما رواية حجّ أكسوم بن الصباح فهي أقل رواجًا وأبعد دراية، ولذلك أرى أن هذه الرواية الأخيرة المختلقة من قِبل المسيحيين خلافٌ للواقع أيضا. أما الروايتان الأخريان، فأولاهما أو كلتاهما صحيحتان، إذ يتضح منهما أن هذه العملية كانت عملاً فرديًا، أو أن الإساءة إلى الكنيسة لم تكن مقصودة بل كانت مصادفة. كما يتضح من هذه الروايات أن أبرهة كان مصمّمًا على التقليل من شأن الكعبة ومنعِ العرب من التوجه إليها بأي ثمن.

فالقضية لم تكن مجرد بناء كنيسة، بل كان المخطط بناء كنيسة تُسقط الكعبة من أعين الناس. كانت خطة مدبرة للقضاء على مقام إبراهيم، وبتعبير آخر كانت خطة للتشكيك في بعثة موعود الكعبة. لا شك أن المخطط لم يخطر بهذا التفصيل في ذهن أبرهة، إلا أنه هو النتيجة النهائية. فقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ و ﴿رَبُّكَ﴾ -بمعنى أننا لم نفعل ما فعلنا بأصحاب الفيل إلا توطيدا لاحترامك وتعظيمك- لقولٌ صحيح ١٠٠%؛ إذ أراد الله تعالى إرساء تعظيم النبي ﷺ بذكر هذا الحادث أكثر من إرساء تعظيم الكعبة.

وباختصار، لقد استشاط أبرهة غضبًا وجمع جيشًا كبيرا وأخذ معه ثمانية أو اثني عشر فيلاً أحدها يدعى "محمود" بحسب بعض الروايات (ابن كثير).

لقد ورد في بعض الروايات أن النجاشي هو الذي بعث هذا الفيل (تفسير ابن كثير)، ولكنها رواية باطلة على ما يبدو، لأن هذا يتنافى مع سيرة النجاشي أولاً، وثانيا لا يذكر التاريخ أن النجاشي أُخبر بهذا الحادث.

لقد أخذ أبرهة الفيلة معه لبثّ الرعب في أهل مكة، إذ أراد هدم الكعبة دفعةً واحدة بربطها بسلاسل تجرّها هذه الفيلة، بدلاً من أن يهدمها رجاله، إذ كان هذا أشدّ تهويلا للعرب وأسرعَ في هدم الكعبة، والعياذ بالله.

لقد قلت من قبل إن انتظار أتباع الديانات المختلفة للمبعوث الرباني الموعود لهم بكل شدة قبيل مبعث النبي ﷺ، هو الذي جعل النصارى يخافون أنه لو استمر هذا الانتظار بين العرب وظهر مدعي نبوة فيهم لازدادوا وحدةً على وحدتهم المتيسرة لهم بسبب الكعبة، وسوف تنشأ فيهم صحوة تقضي على الحكم المسيحي في الجزيرة ليقيموا مكانها دولة عربية. ومما يزيد هذا الدليل قوةً هو ما ذكره الطبري في جامع البيان –وقد سجلتُه من قبل أيضًا– وهو أن أبرهة قد أمر محمد بن خزاعي وأخاه قيس بن خزاعي بنشر دعاية بين العرب ليأتوا لحجّ كنيسته "القُلَّيس". فهذه الرواية تكشف لنا أن الناس كانوا قد أخذوا في تسمية أولادهم محمدا قبل بعثة النبي ﷺ، وهذا أمرٌ يعلمه المسلمون ولا يسع المسيحيين إنكاره أيضا. إن علماء الدرجة الثانية يظنون أنه لم يوجد بين العرب قبل بعثة النبي ﷺ أي شخص اسمه محمد، ولكن كبار العلماء يعارضون هذه الفكرة، إذ الثابت من كتب التاريخ أن بعض الناس كانوا قد سموا أولادهم باسم محمد قبل بعثته ﷺ كما ذكرت هذه الرواية اسم محمد بن خزاعي. والواقع أنه لم يكن هو الشخص الوحيد الذي اسمه محمد، بل نجد في كتب التاريخ خمسة أشخاص باسم محمد قبل النبي ﷺ، وليس سببه إلا ما ذكرت آنفًا بأن العرب واليهود والمسيحيين كلهم قد تولّد عندهم الإحساس قبيل بعثة النبي ﷺ بأنه قد حان ظهور المبعوث الرباني، بل وقد اعترف المؤرخون المسيحيون أنفسهم بوجود روايات تقول إن اسم النبي القادم هو محمد، ويبدو أن العرب فكروا في تسمية أولادهم باسم محمد بعد سماع هذه النبوءات من اليهود والنصارى، متفائلين أن يصبح ولدهم ذلك النبيَّ الموعود الذي ينتظرونه (السيرة الحلبية). ويتضح من كتب المسيحيين أيضا أن النبي الموعود يأتي حاملاً اسم محمد، فقد ورد صراحة في إنجيل برنابا –الذي ينكره المسيحيون دائما– أن شخصا باسم محمد سيظهر قريبا. فوجود اسم محمد بينهم يدل على أنهم أحسّوا أن الموعود قادم وأن اسمه محمد، فلذلك بدأ الناس يسمون أولادهم باسم محمد تفاؤلاً، فلعل الحظ يحالف ولدهم فيكون ذلك الموعود الذي أنبأت عن مجيئه كل الديانات، ويترقب الناس ظهوره بشدة. وبالفعل نجد في التاريخ خمسة أشخاص اسمهم محمد في الزمن

القريب لبعثة النبي ﷺ، أما الآخرون الذين كانوا يحملون اسم محمد و لم يذكرهم التاريخ فلا نستطيع أن نذكر عنهم شيئا. إلا أنه من المؤكد أن العرب لم يسمّوا أولادهم باسم محمد في أي زمن غير الزمن القريب من بعثة النبي ﷺ. فعدم تسميتهم أولادَهم باسم محمد من قبل، ثم تسميتهم إياهم بهذا الاسم قبيل بعثته ﷺ لدليلٌ بينٌ على وجود إحساس عندهم يومها بأن ظهور النبي الموعود وشيك، لذلك بدءوا يسمون أولادهم باسم محمد على سبيل التفاؤل.

باختصار، لما بلغ أبرهةَ أن محمد بن خزاعي قد قُتل ثارت ثائرته وتميّزَ غيظًا، وازداد إصرارا على هدم الكعبة المشرفة (جامع البيان للطبري).

الحق أن قتل محمد بن خزاعي ما كان يمنحه أي مبرر سياسي لمهاجمة مكة؛ لأن بني خزاعة لم يكونوا تحت حكم اليمن، فقتلُ العربِ لشخص منهم جراء غدره لا يمنح أبرهة أي مبرر سياسي للهجوم، فكل قوم يمكن أن يقتلوا أحدًا منهم ولو ظلما. لقد وضّحت هذا الأمر إذ قد يقول قائل: كان هجوم أبرهة شرعيًا من الناحية السياسية، لأن العرب قتلوا محمد بن خزاعي الذي بعثه أبرهة للدعاية بين العرب. كلا، إنه كان من العرب، وأحدُهم قتَله، وقتْلُه جريمة فردية لا جماعية، وبنو خزاعة لم يكونوا تابعين لحكم اليمن حتى يُتَّخذ قتله مبررا سياسيا للهجوم على مكة.

لما أخذ أبرهة في تجهيز الجيش حوّل الله تعالى انتباه العرب إليه ليزيد هذه المعجزة عظمةً، فتحمس عامة العرب للتصدي له، وكان أهل اليمن أولهم ثم تلاهم الآخرون؛ حيث حاول مَن تبقى مِن قادة العائلة الحميرية الحاكمة على اليمن قبل أبرهة استغلال هذا الوضع كي يستردوا مُلكهم ويبسطوا سلطانهم ثانية، فقاموا بتحميس العرب كلهم قائلين: لقد خذلتمونا ضد أبرهة من قبل، فترون الآن كيف أنه خرج للهجوم للقضاء عليكم جميعًا ولهدم الكعبة، فلا تزال عندكم فرصة الحفاظ على كرامتكم، فتعالوا نحاربه متحدين. فقام "ذو نفر" الحميري وهو من كبار العائلة الملكية اليمنية سابقًا بقيادة هذه الحملة (روح المعاني)، فنفخ حماسًا شديدًا في عامة العرب في اليمن باسم حماية الكعبة، فاجتمعت جميع القبائل العربية

في اليمن تحت رايته، فما إن خرج أبرهة من صنعاء حتى تصدى له ذو نفر بجيشه، واشتبك الفريقان. لا شك أن هؤلاء العرب كانوا مدفوعين بحماس دينيّ وحمية قومية، ولكن دولة اليمن كانت جزءا من الإمبراطورية الرومانية وكان عندها جيش مدرب تدريبا عاليًا على القتال. لا شك أن العرب كانوا منظَّمين إلى حد ما، غير أن مثَلهم مقابل جنود أبرهة المنظمين كمَثل جنود القبائل الأفغانية مقابل جنود الإنجليز، إذ كان هؤلاء أكثر من العرب عدة وعتادا، يتدربون على فنون القتال في المعسكرات، وكانوا كلهم جنودا نظاميين يتلقون رواتب نظير القتال، فأنَّى للعرب أن يقاوموهم؟ فمع أنهم أبلوا في الحرب بلاء حسنا مدافعين عن دينهم، لكنهم هُزموا في النهاية. فأسر أبرهةُ ذا نفر، ولما أراد قتله قال له: "لا تقتلني، فعسى أن يكون بقائي معك خيرا لك من قتلي". (تفسير الطبري)

هذا القول يبدو بسيطا، ولكنه ذو مغزى كبير، إذ يدل على أن "ذا نفر" كان على يقين أن كثيرا من القبائل العربية سوف تخرج لمحاربة أبرهة، فيعاني كثيرا من المشاكل، ولذلك قال في نفسه: لو بقيتُ معه لنفعتُه بالتصالح بين الفريقين فأنتفع منه فيما بعد. مما يوضح جليًا أن ما أراده أبرهة قد أثار العرب كلهم، فرأوا التصدي له واجبًا عليهم.

وبعدها سار أبرهة نحو الشمال حتى وصل إلى أرض بني خثعم الواقعة بين اليمن والطائف، فتصدى له جيش عربي آخر تحت قيادة نفيل بن حبيب الخثعمي، وكان يضمّ أيضًا قبيلتيْ شهران وناهس، ويرى البعض أن شهران وناهس جزء من بني خثعم، بينما يرى آخرون أنهما قبيلتان مختلفتان. المهم لقد حارب كلهم أبرهة دفاعًا عن الكعبة، إلا أنهم لقوا نفس المصير الذي لقيه الجيش العربي الأول، إذ كان هؤلاء القبليين يخرجون للحرب مرة كل ستة أشهر أو سنة، أما أبرهة فكان معه جيش منظم خبير يتدرب طول السنة في المعسكرات، ثم إنهم أكثر منهم عدّةً وعتادًا، فأنَّى للعرب أن يحاربوهم؟ لقد حاربوا ببسالة وقُتل الكثير منهم وجرحوا، ولكنهم مُنوا بالهزيمة، فأُسر قائدهم نفيل بن حبيب الخثعمي. ولما أراد أبرهة قتله

قال له نفيل: اتركْني حيًّا، فهذا أدعى لنفوذك على شهران وناهس. فاستبقاه وأخذه معه خفيرًا يدلّه على الطريق.

هذا يعني أن العرب كانوا قد أصبحوا ضعاف الإيمان، فمع أنهم حاربوا بشجاعة، ولكن إذا خافوا على أنفسهم تنازلوا مقابل الإغراء. وهذا ما فعل نفيل، فلما أراد أبرهة قتله قدَّم له خدماته قائلا: أمامك مَوماةٌ ستتيهُ فيها، فَاسْتَبْقِنِي حيًّا لأوصل جنودك إلى الكعبة، فقبِل عرْضه وأخَذه معه أسيرا. فسار بجيشه حتى وصل قريبا من الطائف، فخرج لاستقباله رئيسها مسعود بن معتَب زعيم بني ثقيف مع أعيان القوم. فقال مسعود الثقفي لأبرهة: أيها الملك، ليس بيننا وبينك خلاف. علمًا أن بني ثقيف هم الذين قضى النبي ﷺ بينهم أيام طفولته (السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص ١٦٩)، وهم الذين خاض ضدهم آخرَ حرب في حياته؛ أعني غزوة حنين (تاريخ الطبري: غزوة حنين)، والصنم "اللات" المذكور في القرآن الكريم –والذي يذكره شعراؤنا أيضًا بالأردية في شعرهم– كان معبده في مدينة الطائف. كان أهل الطائف يعظِّمون الكعبة بل كانوا يحجّونها، ومع ذلك كانوا يكنّون لها العداء بسبب صنمهم اللات؛ إذ كانوا يشعرون أن معبدهم لن يكون مرجعا للعرب ما دامت الكعبة موجودة.

وكان هناك سبب آخر وراء هذا العداء، وذلك أن أهل الطائف كانوا أكثر مالاً، وكانت أراضيهم خصبة جدا، فهي تنتج ألذَّ عنب ورمان في العالم. يرى الأوروبيون أن عنب إيطاليا أفضل عنب العالم، ولكني قد تناولت العنب الإيطالي خلال سفري إلى أوروبا وعنب الطائف أيضا، ولو أعطيتُ عنب الطائف مائة درجة فلن أعطِ العنب الإيطالي عشرة مقابله؛ إذ لا مقارنة بينهما أصلا. كما لم أذُقْ رُمّانًا أحلى من رمان الطائف؛ فهو شديد الحلاوة بحيث لا تريد أكل حلوٍ بعده. وإذ كان أهل الطائف أكثر مالا، وكان معبد اللات في مدينتهم، فكانوا يعادون أهل مكة حسدًا من عند أنفسهم، إذ كان معبدهم لا يحظى بنفس التعظيم الذي تحظى به الكعبة، فكانوا، مع حجّهم للكعبة، يسعون لأن يصبح معبد صنمهم اللات أكثر حرمة من الكعبة، أو مساويا لها. فلما رأوا أبرهة قادما لهدم الكعبة

ثارت حميتهم ضد أهل مكة فظنوا أن أبرهة لو تمكن من هدم الكعبة توجّهَ الناس إلى معبد اللات، فخرج زعيمهم مسعود بن معتب لاستقباله، وقال له: ليس بيننا وبينك خلاف، ولا الكعبة تعني لنا شيئا، ونحن خدامك وطوع أمرك، وسوف نبعث معك دليلا يوصلك إلى الكعبة رأسًا، فأمامك وِدْيان مخوّفة، فنخاف على جندك أن يضِلّوا الطريق فلا تصل إلى مكة. ثم قال لأبرهة مؤكدًا ولاءه له: "فأرجوك ألا تتعرض لمعبدنا". مع أنه لم يخرج لهدم أي معبد سوى الكعبة المشرفة؛ إذ أيقنَ أن الكعبة تحول دون توجُّه العرب إلى المسيحية. فقبِل أبرهةُ التماسه، بل وعده بالمكافأة. فأرسل مسعود معه دليلا اسمه أبو رغال. ولكن مات هذا الدليل لما وصل جيش أبرهة إلى مكان قريب من مكة يسمى المُغَمَّس، فبنى قبره هناك، وكان العرب حتى بعثة النبي ﷺ بل بعده أيضا إذا مرّوا بقبره رشقوه بالحجارة إعلانا منهم أنه من الملعونين، حيث غدر بدينه وقومه وصار دليلا لأبرهة وجنده (روح المعاني). لا أستطيع القول ما إذا كان هذا القبر لا يزال موجودا اليوم أم لا، إذ ليس لدي معرفة بذلك.

هناك اختلاف عند المؤرخين فيما إذا كان أبرهة قد وصل بجيشه إلى المغمَّس أم تجاوزَه؛ فمنهم من يرى أنه لم يدخل حدود الحرم، ومنهم من يرى أنه وصل إلى عرفات؛ مما يعني أنه وصل قريبا من مكة باثني عشر ميلا. وبعضهم يرى أنه تجاوز أكثر، ووصل قريبا من مزدلفة؛ وهذا يعني أنه وصل قريبا من مكة بثمانية أميال. غير أن كل كتب التاريخ تتفق على أنه وصل حتمًا إلى المغمَّس التي تبعد عن مكة ١٦ ميلا على أكثر تقدير. فقد ورد في أبي داود عن عَبْد اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ حِينَ خَرَجْنَا مَعَهُ إِلَى الطَّائِفِ -أي في غزوة حنين- فَمَرَرْنَا بِقَبْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ -وهو أبو ثقيف وكان من قوم ثمود- وَكَانَ بِهَذَا الْحَرَمِ يَدْفَعُ عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النِّقْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ بِهَذَا الْمَكَانِ، فَدُفِنَ فِيهِ. (أبو داود، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب نبش القبور)

يبدو من هذه الرواية أن أبا رغال لم يكن دليلا لأبرهة، بل كان ممن يدافع عن مكة، لأن الرسول ﷺ يقول هنا: " وَكَانَ بِهَذَا الْحَرَمِ يَدْفَعُ عَنْهُ".. أي أنه جاء

للدفاع عن مكة. بينما تقول الرواية الأخرى أنه خرج مع أبرهة يدله على الطريق. ولا تبدو بين هاتين الروايتين أي علاقة في الظاهر، لأن إحداهما تعتبره عدوا للكعبة، والثابت تاريخيًا أنهم كانوا يرجمون قبره، بينما تقول الرواية الأخرى أن الرسول ﷺ أخبر أنه جاء دفاعًا عن مكة. وقد حاول البعض حلّ هذا الإشكال بقوله إن إحدى الروايتين صحيحة والأخرى باطلة آخذًا برواية أبي داود، بينما يقول الآخرون إن الرواية الأخرى أيضا قطعية تاريخية فلا يمكن اعتبارها باطلة (روح المعاني).

وقد حلّ المفسرون هذا الإشكال بقولهم إنهما شخصان اسمهما واحد، فأحدهما جاء للدفاع عن مكة، والآخر جاء دليلاً لأبرهة، وكان لهما قبرانِ. لو لم يكن هناك قبران لقال العرب: يا رسول الله، نحن نرجم قبره باعتباره غادرًا متمردا، وأنت تعتبره محافظا للكعبة (روح البيان). فثبت أن هذا القبر كان لأبي رغال آخر، ولذلك لم يقل أحد منهم يا رسول الله، ما هذا الذي تقول؟

إذًا فهناك أبو رغال الذي جاء مع أبرهة دليلا له ومات في الطريق، وهناك أبو رغال آخر جاء ليدافع عن مكة ومات فيما بعد. وهذا دليل آخر أن هناك شخصين باسم أبي رغال؛ فالأول مات قبل نزول العذاب على أصحاب الفيل، أما الآخر فمات بعد العذاب إذ ظل في مكة دفاعا عن الكعبة، فلما ذهب إلى قومه مستطلعا أخبارهم مات بالوباء الذي تفشّى في أصحاب الفيل وقومه.

وأرى أن سبب موت أبي رغال الأول بعد وصوله إلى المغمَّس هو أنه كان في قلبه شيء من الإيمان لكونه من العرب الذين يقدّسون الكعبة، ففكّر في شناعة غدره إذ خرج دليلاً لأبرهة؛ فشقّ ذلك على قلبه فمات بسكتة قلبية.

المهم أن أبرهة لما وصل مع جنوده إلى المغمَّس، بعث أسوَد بن مقصود الحبشي بكتيبة لاستطلاع أخبار أهل مكة (السيرة النبوية لابن هشام: الأسوَد يهاجم مكة).

وبالمناسبة فإن هذا الاسم (أسود بن مقصود الحبشي) أيضا يدل أن اللغة الحبشية كانت يومئذ مشابهة جدا للعربية. لقد ذكرتُ سابقًا أن اللغة الحبشية كانت تعتبر لهجة من العربية كما هو حال العبرية، وهناك كلمات كثيرة متماثلة في اللغتين، وقد انتقلت كثير منها من لغة إلى أخرى، حتى تجد كثيرا من الأسماء أيضا متشابهة

فيهما. خذوا مثلا هذا الاسم: أسود بن مقصود، فكلمة مقصود عربية، كذلك فإن أبرهة ويكسوم مطابقان لأوزان بعض الأسماء العربية (لسان العرب، تحت كلمتي: كسم، بره)، ولا تزال حتى اليوم مشاركة كبيرة بين اللغتين، أما في ذلك الزمن فكانت أكبر. والحق أن حكام الحبشة كانوا من نسل عربي، والأسرة الملكية الحالية من نسل عربي أيضا، وهذا هو سبب المشابهة بين اللغتين.

ونعود إلى حديثنا ثانية، فنقول: لما وصل أسود بن مقصود الحبشي بكتيبته قريبًا من مكة، وجد هنالك مواشي أهلها ترعى في الوديان، فساقها معه عندما عاد بعد جمع المعلومات اللازمة (السيرة النبوية لابن هشام: الأسوَدُ يهاجم مكة). وكانت الجِمال أكبر مالٍ لأهل مكة –علمًا أن الخيل قليلة في الجزيرة العربية، فعندما قمت بالحج عام ١٩١٢ لم تكن في مكة كلها إلا ثلاثة خيول أو أربعة، ولا أعرف عن الوضع الآن. والحصان العربي الشهير عالميا يوجد في شرق الجزيرة، أي في نجد وأطرافها. وأهل الشام وما حولها أيضًا يربّون الخيول، ولكن تربيتها عند أهل الحجاز قليلة، والسبب قلّة الكلأ. فالجِمال تعيش على أوراق الشجر وأشواكها، لكن الخيول لا تأكل هذه الأشياء، لذلك كانت الجِمال أكبر مال عند العرب عبر الزمن. وكان أهل مكة يستأجرون أناسًا يخرجون بالمواشي صباحا ويرجعون بها مساء كما هو الحال في بلادنا، أما الجِمال فما كان الرعاة يرجعون بها ليلا، بل كانوا يبيتون بها في الخارج، وبعد نحو أسبوع كانوا يرجعون بها ليراها صاحبها. فكانت جمال أهل مكة ترعى في الوديان حولها على مسافة ميلين أو ثلاثة، فساق أسود بن مقصود جمالهم، وكان بينها مائتا جمل لعبد المطّلب.

لما اقترب رجال أبرهة من مكة لاستطلاع الأخبار، ظنّ أهلها أن الهجوم وشيك، فاجتمع زعماء بني كنانة وهذيل وقريش للتشاور فيما إذا كان عليهم أن يتصدّوا لأبرهة أم لا –علمًا أن قريشًا ليست وحدها من بني إسماعيل، بل كان بنو إسماعيل قد انتشروا في الجزيرة كلها، وليست قريش إلا أولاد أحد أبناء كنانة الذي هو من نسل إسماعيل– فأجمعوا على أن لا قِبَلَ لهم بأبرهة وجنوده، فلا مجال للحرب، وهكذا تخلّوا عن فكرة محاربته (السيرة النبوية لابن هشام: أمر الفيل).

لقد سبق أن قلت إن أبرهة لم يخرج لإيذاء العرب أو معاقبة أهل مكة، وإنما كان هدفه هدم الكعبة حتى لا يتوجه العرب إلى مكة بعدها، بل يتوجهوا بدلاً منها إلى كنيسته في صنعاء، أو يتفرقوا ويتشتتوا فلا يبقى لاتحادهم سبيل. ومن أجل ذلك بعث إلى أهل مكة رسوله الخاص "حياطة"* الذي كان من بني حمير، ليخبرهم نيابة عن أبرهة أنه لم يأت إلا لهدم الكعبة، ولا يريد إيذاءهم أبدًا؛ إذ ليس بينه وبينهم عداوة، وهو لا يريد أن يزهقوا أرواحهم من دون داعٍ، فلو خلّوا سبيله ليهدم الكعبة فهم إخوانه ولا يريد أي فساد بين الطرفين (السيرة النبوية لابن هشام: أمر الفيل، رسول أبرهة إلى مكة، وروح المعاني).

ولما بلغ رسول أبرهة إلى مكة سأل عن زعيمها، فدلّوه على عبد المطلب، فوصل إليه وبلّغه رسالة أبرهة، فرد عليه في الجواب: إذا كان هو لا يريد حربنا، فوالله لا نريد حربه أيضًا، ثم أخبره صراحة وقال: لقد قرّرنا بعد التشاور ألا نتصدى له، إذ لا قِبَلَ لنا به.

أما جيش أبرهة فقد قال البعض إنه بلغ اثني عشر ألف مقاتل، بينما قال آخرون: كان عددهم عشرين ألف مقاتل (تفسير ابن كثير). والحق أن مثل هذا الجيش الكبير يكفي لغزو دولة، فإن محمد بن القاسم لما خرج لغزو الهند لم يكن برفقته إلا ثلاثة آلاف مقاتل، ولذلك صرح عبد المطلب لرسول أبرهة وقال: إننا لا نمنّ على أحد، بل الواقع أننا لا نقدر على محاربته. أما هذا البيت الذي نقدّسه فإننا نؤمن أنه بيت الله، وأن الله قد وعد بحمايته، وأن إبراهيم الذي كان خليل الله ونبيّه وحبيبه هو الذي قد بناه. ولا شك أنه لا قِبَلَ لنا بأبرهة وجنوده، ولكننا نريد أن نخبركم بصراحة أن الله تعالى لو أراد حماية هذا البيت فهو بيته، وهو المسؤول عن توطيد حرمته، فإذا كان هو لا يريد حماية هذا البيت ويتخلى عنه ليهدمه أبرهة

* ذكر بعض المراجع -مثل روح المعاني- اسمه "حياطة"، وبينما ورد في معظم المراجع "حناطة". (المترجم)

وجنوده، فليس عندنا سبيل لحمايته. فقال "حياطة" لعبد المطلب: إذا كنتم لا تريدون محاربة أبرهة فالأفضل أن ترافقني إليه، لأنه يرغب في لقاء أحد زعماء مكة، فأرجو أن تأتي معي وتخبر أبرهة أنكم لا تريدون محاربته، فهذا يفرحه، وربما يتراجع عن هدم الكعبة.

فأخذ عبد المطلب أبناءه وبعض رؤساء مكة وخرج إلى المغمَّس للقاء أبرهة. ولما كان العرب يخرجون في أسفار بكثرة كما هو مذكور في السورة التالية لهذه السورة، بعضهم إلى اليمن وبعضهم إلى الشام وبعضهم إلى الحبشة وبعضهم إلى العراق (تاريخ مكة المكرمة ج١ ص١٩٥)، فكان بينهم وبين أهلها صداقات وصلات، وكان بين عبد المطلب وذي نفر الحميري صلاتٌ متينة بلغت حد الصداقة، فلما علم عبد المطلب من خلال الحديث مع "حياطة" أن الحميري هذا كان قد خرج بجيش ضد أبرهة دفاعًا عن مكة وأنه هُزم وأُسر وأنه معه الآن، فكَّر في لقائه قبل لقاء أبرهة، لأن الحميري من اليمن ويعرف عادات الحبشيين معرفة تامة، فلعله يشير عليه برأي مفيد. فوصل إلى المعسكر وعلم بمكان إقامة الحميري، -لا شك أن الحميري كان أسيرا، ولكن الأسير في ذلك الزمن لم يكن يوضع في زنزانة، بل كان يعيش مراقَبًا مثل الإقامة الجبرية التي تفرض على بعض المجرمين اليوم- وقال له: كيف أصبحت عديم الاهتمام بالكعبة وأهلها.. أي لو كنت تحب الكعبة حقًّا، أو لو كان عندك أي اهتمام بالصداقة بيننا لسعيتَ لمنع هذا الهجوم على الكعبة. فقال ذو نفر الحميري: ماذا يمكن أن يفعله أسير لا يعرفُ صباحًا أَيَظَلُّ حيًّا حتى المساء، ولا مساءً أَيَظَلُّ حيًّا حتى الصباح؟! أنا تحت رحمة أبرهة كلية، فإذا شاء قتَلني مساءً أو صباحا. ولقد فعلتُ ما كان بوسعي. لقد حاربتُه فهُزمت وأُسرتُ. أتمنى لكم النجاة، لكن لا أملك شيئًا، فما قيمة رأيي؟ غير أنني قد أنشأتُ خلال أسري صداقةً مع سائس فيل الملك واسمه أنيس (روح المعاني)، فهو يكنّ لي الاحترام، فإذا شئت دعوتُه وطلبت منه أن يهمس في أذن الملك بكلمة خير من أجلك. وكانت عادة الملوك في القديم -وقد استمرّت عند ملوك الهند أيضًا

فترة طويلة- أن يقبلوا شفاعات خدمهم إلى حدّ كبير، إذ يرون رفضها خلافًا لمكانتهم، ويبدو أن هذه العادة كانت عندهم أيضًا. إن عمل سائس الملك مسؤولية كبيرة؛ فهو مسؤول عن حياته، إلا أنه ليس منصبا كبيرا كمناصب الضباط والقادة، وغاية ما يمكن أن نقول إنه سائس كبير، إلا أن كلمة "أنيس" كانت مسموعة عند الملك لكونه خادمًا مدلّلا له، ولذلك أشار ذو نفر على عبد المطّلب أنه يستطيع أن يدبّر مقابلة بينه وبين "أنيس". وكان عبد المطلب لا يملك حيلة ولا يهتدي سبيلا، فقبِل اقتراح ذي نفر مسرورا، فبعث ذو نفر إلى "أنيس" بأن عبد المطلب زعيمُ قريش، يشفق على الفقراء ويطعم الحيوانات فضلاً عن الناس، وقد أخذ فرسانُ الملك مائتي جمل له، فأرجوك أن تدبّر لقاء له مع الملك وتشفع له شفاعة حسنة إن استطعتَ.

وقوله هذا إشارة إلى ما كان يفعله الناس في الماضي، بل اليوم أيضا، فإنهم إذا ذبحوا حيوانا ألقوا شيئًا من لحمه للحِدْآن والكلاب. فكأنه قال إنه رجل كريم لا يعتني بالناس فقط، بل يرفق بالحيوانات أيضا.

فوعَده "أنيس" بما أراد، وذهب بعبد المطلب إلى خيمة أبرهة واستأذنه قائلا: لقد جاء عبد المطلب زعيم مكة راغبًا في زيارتك. ثم أخبره كما أشار عليه ذو نفر بأنه إنسان كريم يطعم الناس والحيوانات، ونرجو من ملكنا أن يخصّه بعنايته وكرمه. فسمح له الملك بالدخول. كان عبد المطلب جميلاً وجيهًا طويلا ضخم البِنية قويّ البنية أبيض البشرة، فلما دخل عليه أُعجبَ به أيما إعجاب -علمًا أن الأحباش قصيرو القامة عادة- فقام للقائه، فأراد أولاً أن يُجلسه معه على الأريكة، ولكنه غيّر رأيه؛ حيث فكّر أن هذا ربما يُسخِط قومه الأحباش، إذ يعتبرونه إساءة إلى ملكهم. غير أنه لم يُرِدْ أن يجلس عبد المطلب على الأرض وهو جالس على الأريكة، فنزل وجلس على السجاد وأجلس عبد المطلب معه. ثم قال لترجمانه: قلْ له: إني مسرور بلقائك، فما الذي وراءك؟ وماذا تريد مني؟ فقال عبد المطلب لترجمانه: قُلْ للملك: إن رجالك قد ساقوا مائتين من إبلي، وأريد أن يردّها لي. فلما نقل الترجمان كلامه لأبرهة قال له: قُلْ له: كنت أُعجبتُ بك حين رأيتك، إذ

ظننتك عاقلاً محنّكًا، ولذلك نزلتُ عن عرشي للقائك، ولكن رأيي قد تغير بعد سماع كلامك. فلعله قد بلغك أني جئت بجيش عظيم لهدم المكان الذي هو معبدك ومعبد آلهتك، وكنت على يقين أنك ستعرض أمامي هذه القضية وستطالبني بالعودة من دون التعرض لهذا المكان المقدس عندك، سواء قبلتُ طلبك أم لم أقبل، لكنك لم تشر إلى معبدك بل معبد آبائك من زمان سحيق، وإنما جئت تطالبني بردّ مئتين من إبلك. فهل هذا محل الحديث عن الإبل؟ تتحدث عن المائتين من إبلك التي قد ساقها رجالي، ونسيت ذلك البيت الذي هو ذو صلة وثيقة بدينك ودين آبائك؟

فقال عبد المطلب للترجمان: قل لملكك: أنا صاحب الإبل، ولم أطالبك بها إلا تذكيرًا لك بأنها جمالي ولذلك أنا قلقٌ بشأنها، وإذا كان للكعبة ربٌّ، فلا بد أن يكون مهتمًا بها؛ فإني لم أخطئْ في مطالبتي بإبلي، وإنما بيّنتُ لك هذا لأننا إذا كنا صادقين في إيماننا بأن هذا البيت لله فلن تنجو من العقاب إذا هاجمتَه، لأنني إذا كنت مهتمًا بجِمالي، فهل تظنّ أن رب الكعبة لن يهتم بها ولن يدافع عنها؟ إن كل إنسان يعمل بما في وسعه، فلو قاتلناك ومع ذلك هدمتَ هذا البيت فماذا ينفعنا هذا؟ أما إذا أراد الله تعالى حماية بيته هذا فلماذا نحاربك؟ فإن صاحبه سوف يتولى حمايته منك.

فبُهِتَ أبرهة، ولكنه قال: الآن لن يمنعني من هدم هذا البيت مانع. فقال عبد المطلب: إذًا فهذا بينك وبين صاحب هذا البيت، أما أنا فأرجوك أن ترُدَّ لي إبلي. فأمَر أبرهة بردِّ الجِمال لعبد المطلب (روح المعاني).

لقد سبق أن ذكرتُ أنه لم يكن في رفقة عبد المطلب عندها إلا أبناؤه الذين ذهبوا معه لحراسته أو بعضُ زعماء القبائل. وورد في الروايات أنه كان برفقته يعمر بن نفاثة زعيم بني كنانة وخويلد بن واثلة زعيم هذيل. كان عبد المطلب يغلب عليه طابعُ الزهد والنسك، أما يعمر وخويلد فكانا سياسيين، فقالا لأبرهة: لقد جئنا بعرضٍ من أهل تهامة وهو أن تأخذ ثلث غلالنا وتترك الثلثين على أن تنثني عن

هدم الكعبة. فقال أبرهة: كلا، إنما جئت لهدمها ولا رغبة لي في مـــالكم. فرجـــع القوم إلى مكة.

فجمع عبد المطلب أهل مكة وحكى لهم ما جرى في لقائه مع أبرهة، وأخبرهم بأننا قد اقترحنا عليه أن يأخذ ثلث أموال تهامة كلها على ألا يتعرض للكعبة، لكنه رفض. مما يدل أنه سيهاجم الكعبة حتمًا، وليس عندنا جيش ولا عتـــاد، فـــالرأي عندي أن تُخْلوا المدينة وتعتصموا بالجبال لكي يأتي أبرهة ويفعل مـــا يريـــد، أو يُحدث الله أمرًا، وبعدها سوف نرجع إلى مكة.

ثم توجّه عبد المطّلب مع بعض رجالات قريش إلى الكعبة بقلب مفعم بالرقّـــة واللوعة والألم، فأخذ حلقة بابها وأنشد داعيًا ربه في حرقة وألم:

لاهُمَّ إن العبد يمنع رحله فامنعْ حِلالكْ

لا يغلبنّ صليبُهم ومِحالُهم، غَدْوًا، مِحالَك

ولفظ "لاهُمَّ" أصله "اللّهمَّ"، حيث يحذفون الألف واللام لضرورة شعرية أحيانا. ومعنى البيت: يا ربّ، إن المرء يتصدى لمن يأتي لنهب بيته الذي يعيش فيه مع أهله وأولاده، فأتوسل إليك رب أن تحمي من العدو بيتك هذا الذي يجتمع فيه النـــاس لعبادتك. ربِّ سيأتي أبرهة غدًا لهدم الكعبة بصلبانه وقواته، فلا تَدَعَنَّه يتغلب على قدرتك وكيدك.

ثم اعتصمَ عبد المطلب مع قريش بالجبال ينتظر هجوم أبرهة.

وفي صباح اليوم التالي أشار أبرهة لجنوده بالتحرك، وأمرهم بإخراج الفيلة أولاً ليتبعها سائر الجيش، فلما ذهبوا يُخرِجون الفيلة لم يتحرك كبير الفيلـــة – واسمـــه محمود – من مربضه بقدرٍ من الله تعالى، فجميع المصادر التاريخية متفقة أنه كلمـــا وجّهوه إلى مكة لم يتحركْ وبرك. علمًا أنه كما يكون في الجيش قادة على كـــل مجموعة من الجنود يتحركون بأمره وتحرُّكه، كذلك يكون للفيلة قائد منها تتحرك بتحرّكه؛ فإذا قام قامت، وإذا هاجم هاجمت، فهي تتبعه في كل حـــال، أمـــا إذا خرجت من دون قائدها سارت سيرًا معوجًّا مشتّتا، وقد تتحرك أحيانا وهي تظن أن قائدها وراءها، ولكنها لا تخوض الحرب من دونه. فلما برك الفيـــل "محمـــود"

أصابهم القلق مخافة أن تفشل الخطة كلها، فضربوه ليقوم فأبى، فضربوه في بطنه ووجهه بالأسنة والمحاجن وغيرها، ولكنه لم يتحرك، وكلما أكثروا من ضربه قام فزعًا، وكلما وجهوه إلى اليمن أو إلى أي جهة أخرى قام مسرعا، ولكنهم إذا وجّهوه إلى مكة برك. فظلوا يضربونه في فزع ولكنه لم يقم، فتأخر تحرُّك الجيش (جامع البيان). وفيما هم في ذلك حتى بلغ أبرهة أنه قد ظهرت أعراض الجدري على بعض جنوده. علمًا أن بعض الأمراض مخصوصة ببعض البلدان، ومرض الجدري خاص بالأحباش، فقد انتشر أصلا من الحبشة، كما أن مرض الزُّهْري ظهر أولاً في أوروبا (الموسوعة البريطانية، تحت كلمة: Syphilis)، ولذلك سُمّي في الكتب العربية "داء الإفرنج". ولما كان أهل مكة قد خرجوا إلى الجبال تاركين بيت الله تعالى وراءهم، ولم يكن هناك ما يحول بين بيت الله وهذا الجيش، ولم يكن له حامٍ منه سوى الله، فنزل الله لحمايته في صورة وباء الجدري الذي هو أشد فتكًا بالأحباش من غيرهم. فلما بلغ أبرهة أن الجدري قد تفشى في جنوده، وأن أكبر الفيلة لا يتحرك مما بثّ الرعب فيهم؛ أجّلَ تحرُّك الجيش (السيرة النبوية لابن إسحاق: أبرهة يهاجم الكعبة).

ليس لدينا تفاصيل بهذا الصدد، إلا أن الثابت من كتب التاريخ أن الجيش لم يتحرك في ذلك اليوم لعدم تحرُّك الفيلة غالبًا، فانتشر الجدري فيهم على نطاق واسع حتى المساء وأخذ الآلاف يضطربون من ويلاته، وفي اليوم الثاني والثالث أخذوا يموتون. ومعلوم أن الجدري مرضٌ مُعْدٍ جدًّا؛ حيث ينتقل من الواحد إلى الآخر بسرعة، فانتقل من المصابين إلى الأصحاء ووقعت الفوضى في الجيش كله.

وكانت هذه أول حالة للجدري بين العرب، ولما تفشّى بين أهل الطائف -أي العرب الذين انضموا إلى جيش أبرهة طمعًا في تعظيم معبد صنمهم "اللات"- أدركوا أن هذا عقاب من الله تعالى على غدرهم ببيته الكعبة، إذ كان الجدري غريبا تماما بالنسبة إلى العرب، فلم يكونوا يعلمون ما الجدري وأعراضه، ولو كانوا على علم به لاعتبروا هذا الحادث صدفة، ولكن جهلهم به جعلهم يعتبرونه عذابا

من الله –وكان بالفعل عذابا من الله– ولكن جهلهم بهذا المرض جعلهم يدركون هذا الأمر بسرعة، ففروا فزعين.

إن الأمم التي يفشو بينهم الجدري وما شابهه من أوبئة تعرف علاجها أيضا؛ فمثلاً تفشّى الطاعون ذات مرة في الجيش الإسلامي في الشام في عهد سيدنا عمر ﷺ، وكان أبو عبيدة بن الجراح ﷺ قائد الجيش، فسأل أهلَ الشام ماذا تفعلون في مثل هذه الحالة؟ قالوا: نخرج من قرانا وننتشر على الجبال. فقال بعض الصحابة: علينا أن نترك هذا المكان ونذهب إلى الجبال، خاصة وأن الطاعون يخفّ في البرد. فقال أبو عبيدة: أتفرّون من قدر الله؟ فقال صحابي: نعمْ، نفرّ من قدر الله إلى قدر الله؟.. أي حيثما نذهب يكون قدر الله نفسه عاملا هناك أيضا، فلا يمكن القول إننا نفرّ من قدر الله.

وهذا هو علاج وباء الجدري عند الناس، فإنهم يتركون المكان الموبوء وينتشرون في أماكن مفتوحة (الموسوعة البريطانية).

فلما تفشى الجدري في جنود أبرهة قرّروا أن ينتشروا هنا وهناك، ولكنهم واجهوا مشكلة كبيرة، إذ كانت جميع الوديان حول مكة وعرة وغير عامرة، حيث تمتدّ البرّية أميالاً وأميالا يضل فيها الناس. فلما انتشرت جنوده في الوديان ضلّوا الطريق، و لم يجدوا من يدلّهم عليه، لأن الذين رافقوهم من أهل الطائف قد فرّوا، فتبدّدَ جنوده إلى المدينة وإلى نجد وغيرهما من مناطق، بدلاً من أن يتجهوا ناحية اليمن، إذ لم يعرفوا جهة بلادهم، فمات كثير منهم جوعا وعطشا تائهين في تلك الوديان؛ إذ كانوا قد ألقوا ما عندهم من الزاد في فزع وفوضى. وتفاقمت معاناتهم بسبب مرضاهم؛ إذ لو تركوهم هنالك فمن أين يأكلون ومن ذا الذي يعتني بهم، وإذا أخذوهم معهم فكيف وأين يأخذونهم؟ فترك كثير منهم مرضاهم هنالك وهربوا، وهكذا هلك هؤلاء المرضى جوعا وعطشا. أما الذين أخذوا مرضاهم معهم فصعب عليهم السفر أولاً، كما أصيبوا بالجدري أيضا مثلهم، فهو مرض مُعدٍ جدًا، وهكذا وقع معظم الجيش فريسة له.

أما أبرهة فقد هرب برؤية هذا الدمار، وحيث إنه كان ملِكًا فيبدو أن بعض كبار رجالاته رافقوه خوفًا منه، فتوجّه معهم نحو اليمن، ولكنه أصيب بالجدري بشدة حتى ملأت جسدَه البثورُ المليئة قيحا، وأخذ لحمه يتساقط. لا شك أن هناك بعض المبالغات في الروايات، ولكن لا يمكن إنكار أن أبرهة أصيب بالجدري الفتّاك، وتقول الروايات أنه عندما وصل صنعاء لم يبق منه إلا رأسه وعظامه، فمات هنالك (مجمع البيان، وروح المعاني).

كان دمارًا شديدا غير عاديّ، فوقعت ضجّة في البلاد، وذُعر الناس وأصابهم الهلع، وأدركوا أنه عذاب من الله.

سوف أذكر لاحقا الروايات التي سجلها المفسرون، أما هنا فأكتفي بالقول بأن الرواية الشهيرة بهذا الصدد تقول إن الطيور جاءت وألقت الحجارة على أبرهة وجنوده، فكان الحجر يصيب المرء في رأسه ويخرج من إِسته (روح المعاني).

وفي رواية عن عكرمة في تفسير روح المعاني أن من أصابه الحجر أصابه الجدري، ثم يقول: وهو أول جدري ظهر بأرض العرب، ولم يكونوا على عهد به من قبل.

وقد نقل الطبري عن يعقوب بن عُتبة قوله أنه حدّث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري في أرض العرب ذلك العامَ. (جامع البيان)

وأتناول الآن شتى الروايات التي ذكرها المفسرون. لا شك أن الروايات التي سجلتها من قبل منقولة عن المفسرين والمؤرخين، ولكني سجلتُ من قبل الروايات التي أراها أصحّ، أما الآن فأذكر الرواية التي بنى عليها المفسرون تفاسيرهم:

ورد في هذه الرواية أنه لما قرر أبرهة الهجوم على الكعبة وهو في مكان يسمى "المغمّس"، أمر فيلته بالتحرك أمام الجيش، فبرك كبير الفيلة وقائدها ولم يتحرك، وفيما هم في ذلك إذ رأوا طيورا قادمة من ناحية البحر، وكانت صغيرة، وجوهُها كوجوه البشر، ومناقيرها كأفواه الجِمال، ومخالبها كبراثن الأسود، مع كل طير منها ثلاثةُ أحجار يحملها، حجر في منقاره وحجرانِ في رجليه مثل الحمص والعدس، وكان على كل حجر منها اسمٌ لجندي، فعلى بعضها اسم أبرهة وعلى

غيرها أسماء الآخرين، وكان الطير لا يصيب به إلا مَن كُتب اسمه عليه، وإذا رماه به أصاب رأسه وخرج من إسته وأرداه قتيلا في مكانه.

كذلك ورد أن كلّ فرد من جيش أبرهة هلك بتلك الأحجار، ولم ينجُ منها سوى أبرهة، فهرب من هنالك، فلم يزل الطير الذي في منقاره حجرٌ باسمه يلاحقه، ولكنه لم يضربه به إلى أن وصل إلى اليمن، وأخذ من هنالك سفينة ركبها إلى ساحل الحبشة، وبعدها وصل إلى النجاشي بعد قطع المسافة بين الساحل وعاصمته في نحو خمسة عشر أو عشرين يومًا بالنظر إلى سرعة السفر في ذلك الزمن، فأخبر أنه خرج بنيّة الهجوم على الكعبة، فجاءت الطيور وألقت الحجارة من السماء فمات جنوده كلهم. فقال النجاشي: مِن غير المعقول أن تأتي طيور صغيرة ترمي الناس بحجارة وتقتلهم! وفيما هو في ذلك إذ سمعوا صوتًا، فرأى أبرهة في السماء طيرًا من تلك الطيور، فقال: أيها الملك، انظرْ، مثل هذا الطير كانت الطيور التي كانت تحمل في مناقيرها ومخالبها الحجارة وتقتل شخصا بحجر واحد، فلم يكد ينهي كلامه حتى أصابه الطير بحجر في رأسه فأرداه قتيلا. (روح المعاني، ومجمع البيان)

هذه الرواية هي التي قد ذكرها الرواة كاملةً، وهي تتحدث عن الحجارة بشكل غريب، مما يجعلها تخالف الرواية التي ذكرتُها من قبل، وتخالف العقل أيضا. لقد ذكرتُ من قبل أن معظم الروايات تذكر فرار أبرهة وتذكر إصابته بالجدري في الطريق ووصوله إلى اليمن وهلاكه قريبا من صنعاء. والحق أن الروايات التي تذكر أن الحجارة تصيب رأسهم وتخرج من إستهم مبالغ فيها، ولكن قد ورد في روايات مماثلة لها أيضا أن من أصابه الحجر أصيب بالجدري. وهذه الكلمات من الرواية تكشف لنا حقيقة الروايات الأخرى، حيث تكشف لنا أن كل ما في الأمر أنهم إنما أُصيبوا بالجدري، ولكن القصّاصين جعلوا من الحبة قبة. والثابت من رواية الصحابة المتواترة وروايات الآخرين أنهم قد أُصيبوا بالجدري، وأن هذا المرض ظهر في الجزيرة العربية أول مرة في جنود أبرهة، أما قولهم -محاولةً منهم لإقناع المسلم- بأن الله تعالى قد بعث خِصّيصًا من قِبل البحر طيورا لا أثر لها في العالم، إذ كانت

حجومها كحجوم الخطاطيف، ووجوهها كوجوه الآدميين، ومناقيرها كأفواه الإبل، ومخالبها كبراثن الأسود، فهو يدل على أن ناسج هذه القصة قد سبق في تخيُّله صاحِبَ "ألف ليلة وليلة". فلو أنه قال بأن هذه الطيور كانت عظيمة البنية – وذلك كما يصور بعض القصّاصين نسرًا عظيمَ البنية– وأن وجوهها وأعناقها عظيمة كوجوه الإبل الهائجة وأعناقها، ومخالبها عظيمة كبراثن الأسود، وأنها كانت تحمل في مناقيرها ومخالبها حجارة يزن كلّ منها خمسين كيلو غرامًا، فكانت ترمي بها جنود أبرهة فتقتلهم.. أقول لو صوَّرها القصّاص هكذا لكان في تصوره انسجام، ولكنه يقول إن مخالبها كانت مخالب عصافير، ولكنها كانت تبدو كمخالب الأسود، فأنّى لمخلب عصفور أن يظهر مخيفا كبراثن الأسد؟ ثم إن منقار العصفور يكون صغيرا كرأس القلم، فكيف يمكن أن يبدو مخيفا كفم الجمل الهائج؟ فالرواية مثيرة للسخرية. وأكبر ما فيها من سخرية هو أن كل من ألقت عليه هذه الطيور حجرا أُصيب بالجدري! وكأن الله تعالى لم يكن يعلم في ذلك الوقت كيف يخلق هذا المرض في داخل أجساد الناس، فاضطر لأن يخلق هذه الطيور الغريبة التي كانت وجوهها كوجوه الآدميين وأعناقها كأعناق الجمال ومخالبها كبراثن الأسود.. وأن يخلق تلك الأحجار الغريبة التي لا وجود لها اليوم في العالم، والتي إذا أصابت المرء في رأسه خرجت من إسته، وليست حصيلة كل هذا التعب والجهد إلا إصابته بالجدري. كل هذا يشكل في حد ذاته دليلا على أن هذه الروايات ليست إلا نتاجَ تخيُّلِ بعض العرب الجهّال الذين نسجوا هذه القصص الغريبة، والذين لم يعرفوا مرض الجدري. فقد يكون البعض قد ذكر أن جثث هؤلاء القوم وجدت مرمية بين الأحجار، وذكر البعض أن الطيور مزَّقت لحومهم، فظنّ الثالث أنّ هذه الطيور هي التي قتلتهم بالحجارة، ثم لما سمع الآخرون أن هؤلاء الجنود أُصيبوا بالجدري، ضمّوا هذا الأمر أيضا إلى قصته الملفَّقة، فقالوا إن كل من رمته هذه الطيور بحجر كان يصاب بالجدري.

الواقع أن هذه القصة تشبه الحكاية الشائعة عندنا بأن أحدا سأل صاحبه: ما السبيل لصيد طائر النورس؟ فقال له صاحبه هناك طريقة رائعة لصيده، فهو يوجد

في أيام البرد واقفًا منكمشًا على شاطئ ترعة، فخُذْ معك قطعة من الشمع، واقتربْ منه حبوًا، متخفيًا وراء الحجارة والأعشاب، ثم أَلْقِ على رأسه الشمع، ثم اختفِ وراء حجر بهدوء، فإذا طلعت الشمس أذابت الشمع شيئا فشيئا حتى يغطي الشمع عينيه، فتقدَّم عندها وأمسك به. فقال: لماذا لا أمسكه فور وصولي إليه بدلاً من أن أضع على رأسه الشمع وأنتظر طلوع الشمس وإذابتها الشمع وما إلى ذلك؟ فأجاب: لو أمسكت به بهذه الطريقة فأي مهارة في ذلك؟

هذا هو حال أصحاب هذه الروايات، إذ يقولون إن الله تعالى قد بعث طيورا يحمل كل واحد منها في منقاره حجرًا وفي مخلبيه حجرين، وكان يلقيها على كل جندي، فكان يُصاب بالجدري. لماذا لم يقولوا ببساطة إنهم أُصيبوا بالجدري؟ فهذا لا يتطلب نسج كل هذه الحكاية، فإن الله تعالى يصيب الناس بالجدري كل يوم ولا يبعث لذلك أي طير. إنما نسجوا هذه الحكاية لأن العرب لم يعهدوا الجدري ولم يجرّبوه قبل ذلك، فلم يدروا ماهيته. ومن المعلوم أن مرض الزُّهري أصلُه أوروبا، إذ بدأ هناك أولاً ثم تفشى في البلاد الأخرى. أما مرض الكوليرا فلم يوجد في أوروبا حتى ما قبل القرن التاسع عشر، وإنما كان أصله في آسيا الصغرى والصين (الموسوعة البريطانية، تحت كلمة: Cholera)، ومن هنا وصل أوروبا، فوقعت هناك حالات من الكوليرا. فالآن لو قال أحد بأن الله تعالى قد بعث جنًّا ضخامًا فنفخوا في أنوف الناس، فانتفخت أمعاؤهم، وأصيبوا بالإسهال، فأخذوا يموتون، بدلاً من أن يقول إن الكوليرا تفشت فيهم، فهل يصدِّقه أحد؟ فكل ما في الأمر أن هؤلاء أصيبوا بالجدري كما يصاب به الناس اليوم، ولكن لم يكن للعرب عهد بهذا المرض، فنسجوا قصة غريبة بعد سماع شتى أقوال الناس عن الحادث، فسمعوا من البعض مثلاً أن جثث القوم كانت ملقاة على الحجارة، وسمعوا من آخرين أن الطيور كانت تنهش لحومهم، وسمعوا أنه كانت بهم بثور بحجم العدس والسمسم، فجمعوا كل هذه الأمور واختلقوا منها هذه القصة الغريبة.

أما ما هي قصة الحجارة؟ فسوف نتناولها عند ذكرها في الآيات التالية.

باختصار، إن ما قلتُه تدعمه بعض الروايات الأخرى التي تبين أن الأصح هو أنهم أُصيبوا بالجدري. وفي "الدر المنثور" رواية عن عائشة رضي الله عنها رواها ابن إسحاق وهو من كبار المؤرخين –وقد وردت في كتب أخرى أيضا– أنها قالت: لقد رأيت أعميَين في مكة يتسولان الناس، فسألتُ من هما: فقيل لي: إنهما سائس فيلِ أبرهة وقائده (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج١ ص ٨٨).

هذه الرواية توضح الأمر، فالجدري يصيب الناس بالعمى بكثرة، وكان العميان بالجدري كثيرين في الماضي، ولو سألت عن سبب عماهم لقال ٨٠% منهم: الجدري. ذلك أن الجدري عندما يشتد بالمرء تصيب البثور عينه أيضا، فيذهب بصره.

كانت الرواية الأولى تقول: كانت الطيور ترمي المرء بحجر، فيصيب رأسه ويخرج من إسته، فكان يصاب بالجدري، ولكن لم يذكر شيء من هذا القبيل فيما روته عائشة –رضي الله عنها– فهي لم تقلْ إنها رأت آثار ثقوب في رأسي الأعميين، بل تقول ببساطة إنها رأتْ أعميين يتسولان في مكة، فلما سألتْ عنهما قيل لها إنهما سائس فيلِ أبرهة وقائده.

ثم ورد في الرواية الأولى أن من أصابه الحجر مات في مكانه، لكن عائشة تقول إنها رأت بعض جنود أبرهة أحياء يتسولون، ولكنهم كانوا عميانًا. وهذه علامة واضحة للجدري، فمع أن مصلاً للجدري قد أُعِدَّ اليوم ويأخذه الناس للوقاية، إلا أنك لو سألت العميان عن سبب عماهم، لقال العديد منهم إنهم فقدوا بصرهم نتيجة الجدري.

كذلك ورد في حلية أبي نعيم: "ليس كلهم أصابه العذاب". والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إذا كان الله تعالى قد كتب على هذه الحجارة اسم كل واحد من جنود أبرهة، فكيف يمكن أن لا يهلكوا جميعا في ذلك الحادث؟ فهذا دليل آخر أن الجدري قد تفشى بين هذا الجيش، فهلك به بعضهم ونجا الآخرون.

ثم ورد في التاريخ أن من أصابه الحجر أخذ لحمه يتساقط. وهذا أيضا من علامات الجدري، فعندما يشتد الجدري بالمصاب تخرج في جسده بثور كثيرة تفسد جلده تماما، فيتآكل ويتساقط لحمه.

ثم إن حجم هذه الحجارة -كما ذكروه أيضا- يماثل حجم بثور الجدري، حيث قيل بأن هذه الحجارة كانت أكبر من حب العدس وأصغر من حب الحمص، وهذا هو حجم بثور الجدري تماما.

باختصار، أرى أن مثل هذه القصص الخرافية قد نُسجت لعدم فهم الواقع على حقيقته، فلعل البعض قد وصف نزول هذا العذاب السماوي على أبرهة وجنوده قائلا: إن الله تعالى رجمهم، فظنّ السامع أن السماء أمطرتهم بالحجارة فعلاً، مع أن هذا التعبير يفيد نزول العذاب فحسب، لا سقوط الحجارة فعلاً من السماء. وفي لغتنا أيضا يقولون ما معناه: سقطت عليك الحجارة. ثم لما شاهد القوم بعض من نجوا من الموت بالجدري، ووجدوا بأبدانهم آثار بثور حجمها أصغر من الحمص وأكبر من العدس، ظنوا أنها آثار جروح تلك الحجارة التي سقطت عليهم. وقد أُصبتُ أنا أيضًا بالجدري في الحادية أو الثانية عشرة من عمري، ولا يزال بمعصمي أثرٌ لاثنين من بثور الجدري، والغريب أن أحدهما بحجم العدس والآخر أصغر من الحمص قليلا. أما العرب فلم يكونوا على علم بهذا المرض، فلما سمعوا عن عذاب الجدري نسجوا حوله قصصا خرافية، ثم سجلها المفسرون في تفاسيرهم، مع أن كل ما في الأمر أن الجدري قد تفشّى في أصحاب الفيل، فشتّتهم وبدّدهم، فكثير منهم ماتوا وكثير منهم أصيبوا بالعمى، وبعضهم نجوا.

وكما قلت من قبل، فإن هذا الحادث شرحٌ لقوله تعالى ﴿كَيْفَ﴾، و﴿أَلَمْ تَرَ﴾ و﴿رَبُّكَ﴾. لقد بيّن القرآن الكريم هذا الموضوع بكلمة موجزة: ﴿كَيْفَ﴾.. أي لا تنظروا إلى ما وقع عندها، بل عليكم أن تروا كيف وقع؛ فإن أبرهة يخرج من اليمن بجيش جرّار، فيتصدى له العرب في طريقه فيُهزمون. هناك ثلاثة مواطن يمكن أن يقاومه فيها العرب، فوقعت الحرب في مكانين ومُني العرب فيهما بالهزيمة، أما في المكان الثالث.. أي في مكة نفسها.. فإن أهلها قالوا له صراحة: لا طاقة لنا

بمحاربتك. مما يعني أنه لم يكن هناك سبيل لصدّ أبرهة وجيشه عن الهجوم، ومع ذلك خاب وخسر فيما نوى. فالله تعالى لا يركّز هنا على عدد الهالكين من جنود أبرهة، وإنما يركز على أنهم هلكوا من دون أي تدابير بشرية؛ فكل القوى الدنيوية التي تصدّت له قد هُزمت؛ فقد ثار عليه أهل اليمن وحاربوه، فهُزموا بل أُسر قائدهم أيضا. ثم لما وصل أبرهة إلى ديار بني خثعم اجتمعت القبائل العربية وحاربوه، ولكنهم هُزموا أيضًا. ولما وصل قريبا من مكة تشاورت قبائل كنانة وهذيل وقريش وقررت أن لا قِبَلَ لها بأبرهة وجنوده. مما يُؤكد أنه فيما يتعلق بتدابير البشر فإما أنها فشلت ضده، أو لم تُتّخذ أصلاً إذ كانت غير مجدية. وعندما لم يبق سبيل لمقاومته خرج عبد المطلب مع أصحابه من مكة إلى جبالها ينتظر قدوم جيشه، لكنهم لم يدخلوها، فبعث عبد المطلب رجاله لمعرفة السبب، فعلموا أنه قد تفشى الجدري في جنوده بيد الله لا بيد البشر، وأنهم قد تشتّتوا وتبدّدوا فارّين بجلودهم بدلاً من شن الهجوم على مكة.

وكل هذا الحادث تفسير لقوله تعالى ﴿كَيْفَ﴾ الذي يفيد الكيفية، وليس لكلمة "ما" التي تفيد الكم، وإلا فإن هلاك جيش مكوَّن من اثني عشر ألف مقاتل ليس بأمر عجيب؛ فقد نُشر مؤخرا في الجرائد عن حرب الصين أنه قد قُتل فيها ثمانون ألف جندي، وجُرح وأُسر منهم مليون، فهلاك اثني عشر ألف لا يساوي شيئًا إزاء هذا العدد الضخم من القتلى والجرحى؟ وإنْ عرضتَ الحادثين على الناس لترى أيهما أكثر وقعًا في نفوسهم، فستجد حتمًا أن هلاك ثمانين ألفًا في حرب الصين أقلُّ وقعًا في نفوسهم من هلاك هذا الجيش المكوّن من اثني عشر ألف الذين تفشى فيهم الجدري وأهلكهم حين أرادوا الهجوم على مكة، ليس لأنهم عشرة آلاف أو اثنا عشر ألفا، وإنما لأن كيفية هلاكهم شيء مذهل. بل الحق أنا لو افترضنا أن اثني عشر شخصا هاجموا مكة وكان فيها سيدنا إسماعيل فقط، ومات هؤلاء المهاجمون بهذا الشكل، لكان موتهم أكبر وقعًا في النفوس من هلاك ١٢٠ ألفًا بسبب ما أرى الله تعالى من يد قدرته. إذ لو هلك ١٢٠ ألف شخص بتدبير البشر لقيل إنهم ماتوا بيد البشر، وهذا هو مآل التدابير البشرية دائما بأن أحد

الطرفين يكون غالبا والآخر مغلوبا، ولكن لو هلك اثنا عشر شخصا بيد الله تعالى لكان هذا أشد هيبة في النفوس، لأنه تجلٍّ عظيم لجلال الله وقوته. ومن أجل ذلك لم يقل الله تعالى هنا: "ألم تر ما فعل ربك بأصحاب الفيل؟"، أو "ألم تر كم عذّب ربك أصحاب الفيل"؟ بل قال ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.. أي ألم تر كيف أهلكناهم هلاكًا لم يكن لتدابير البشر فيه دخلٌ. علمًا أن الجدري مرض لا سلطان للإنسان عليه، بينما هناك أمراض يمكن أن ينشرها البشر بكيدهم ولو بصعوبة بالغة، مثل الكوليرا والتيفوئيد والطاعون (الموسوعة البريطانية)، إذ إنهم لم يهتدوا بعد إلى طريق لنشر الجدري بين الناس. وقد اهتدوا إلى نشر الكوليرا والتيفوئيد والطاعون في هذا العصر فقط، أما قبلها فلم يكونوا يعرفون أن هذا ممكن. فتفشّي الجدري في جنود أبرهة قبل أربعة عشر قرنا حين لم يكن العرب على علم به –فضلاً عن معرفة علاجه– يؤكد قطعًا أن الله تعالى هو الذي خلق فيهم هذا المرض بقدره الخاص، ومن أجل ذلك ركّز الله هنا على كلمة ﴿كَيْفَ﴾ خاصةً، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

ثم إن كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ تبين بوضوح أن الله تعالى يخبر هنا رسوله الكريم أننا لم نهلكهم إلا من أجلك. فكما أن الأم حين تقول لولدها مثلاً: ألم تر ما فعلتْه أُمُّك، فهي تعني إنما فعلتُه من أجلك، كذلك قال الله تعالى لرسوله: يا محمد، انظرْ كيف أرينا آيةَ قدرتنا من أجلك، فلا تنظرْ إلى هلاك اثني عشر ألفا، بل انظرْ كيف أُهلكوا، أبتدابير البشر أم بيد الله؟ لما فشلت تدابير البشر وحيلهم كلها أرى الله يد قدرته القوية، لأنه أراد أن يخلقك في مكة ويرسي عظمتك فيها ويجعلك سيد العالم كله. فانظرْ كيف دمّرنا جنودهم بنشر مرض فتّاك فيهم، وانظر كيف تصدّينا للجيش الذي فشل الناس في التصدي له وانهزموا وهربوا.

باختصار، إن كلمات ﴿كَيْفَ﴾ و﴿أَلَمْ تَرَ﴾ و﴿رَبُّكَ﴾ تدل على أن كل ما حدث في هذه الواقعة إنما حدث من أجل محمد رسول الله ﷺ فقط، وكان ذلك على النحو التالي:

فأولاً: لم يهاجم أحد مكة في فترة ألفي سنة، وعند حلول السنة التي ولد فيها محمد رسول الله ﷺ فكّر العدو في الهجوم عليها لهدم الكعبة. فسواء أرجعتَ هذا الحادث إلى إحساس اليهود والنصارى والعرب باقتراب ظهور الموعود الذي لم تزل صحف الأنبياء تبشر بظهوره، مما جعل النصارى يتوجسون الخطر أنه لو ظهر هذا الموعود بين العرب بحسب ما تقول الأنباء فسوف يخلق لهم مشاكل كبيرة، فأرادوا كسر قوة العرب بهدم الكعبة التي هي سبب اتحادهم.. أم أرجعت هذا الحادث إلى أن الشيطان لما رأى أن ظهور الإنسان العظيم الذي سيقوم بقتله وشيكٌ، حاولَ القضاء على هذه الحربة السماوية التي ستُستعمل لقتله؛ فأيًّا كان السبب، فمن المحال اعتبار هذا الهجوم صدفة. أليس مما يستدعي التفكير أنه إذا كان الهجوم على الكعبة قدرًا ربانيًا، فلماذا لم يتمّ هذا الهجوم في السنة الأولى لبنائها أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو الخامسة؟ أو لماذا لم يهاجمها أحد في القرن الأول أو الثاني أو الثالث مثلا؟ لماذا ساد السكوت التام اثنين وعشرين قرنًا متتالية، ثم بمجرد أن اقتربت ولادة الشخص الذي بُشِّر بمجيئه عند رفع قواعد الكعبة -والذي كان سيبلغ دينُه العالَمَ كله، والذي سيكون مرجعا للأمم كلها- إلا ويخرج جيش لهدم الكعبة، مما يكشف بوضوح أن هذا التدبير كان لكسر شوكة ذلك الموعود حتما، سواءً اعتبرتَه من نتاج العقل البشري أو نتاج العقل الشيطاني.

وثانيًا: لم يكتف الله تعالى بإهلاك العدو الذي شنّ الهجوم على مكة فحسب، بل قضى على دولته نهائيا أيضا، ومن أجل ذلك لم يقل الله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأبْرَهة، بل قال ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.. أي ألم تر كيف قضى الله على تلك الدولة؛ إذ كان هناك خطر أن تكون عائقا في سبيل رسول الله ﷺ في المستقبل. علمًا أنه كانت بين اليمن ومكة صلات وثيقة، ولو استمر الحكم المسيحي في اليمن مع هلاك أبرهة وجنوده لظل هناك خطر أن تبعث الحكومة المسيحية اليمنية جيوشها لشن الغارات على مكة، مما يعرقل مهمة رسول الله ﷺ حتمًا، فدرءًا لهذا الخطر قضى الله على الحكم المسيحي في اليمن.

فثبت أن هذا الدمار قد تم بحسب مخطط رباني تمهيدًا للمبعوث الموعود. لو أراد الله تعالى لحارب أهلُ مكة أبرهةَ وجنوده، وكان الله قادرا على أن يجعلهم غالبين عليه، فهو القائل: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(البقرة:٢٥٠)، وقد فعل ذلك في بدر والخندق أيضا؛ إذ جعل جماعة قليلة من المسلمين غالبةً على الكفار الذين كانوا أضعافهم، إلا أن انتصار المسلمين في بدر لم يُلق في قلوب الكفار رعبًا يردعهم عن الهجوم عليهم بعدها، بل قالوا إن انتصارهم علينا ليس بأمر غريب، إذ يتغلب الواحد على ثلاثة أحيانا، بل قد يغلب الواحدُ عشرةً بل عشرين، أما الدمار الذي حل بهؤلاء الذين جاءوا يغيرون على الكعبة فظهر بيد الله تعالى دون تدبير إنسان، ليلقي الرعب في قلوب الناس فيوقنوا أن كل ما حصل إنما حصل بيد الله تعالى. فكاد الله تعالى كيدًا محكمًا، كما كاد الإنسان كيدًا محكمًا إذ بنى كنيسة لا ليُعبد فيها الله، بل ليحوّل العرب من الكعبة إلى كنيسته، ثم اختار منهم بعض الزعماء ذوي النفوذ ووعدهم بالجوائز مقابل دعاية بين العرب أن يأتوا لحج هذه الكنيسة في المستقبل بدلاً من الكعبة -مع أن الناس لا يحجّون الكنائس- مما يدل بوضوح على أنه لم يُرِدْ بناء كنيسة للعبادة، بل أراد التقليل من عظمة الكعبة، وبالمثل لم يُرِد الله تعالى بهذا الحادث إهلاكَ أبرهة، إنما كان الهدف الأساس هو إزالة كل العراقيل من طريق محمد ﷺ. ثم كما أن الهجوم على مكة لم يكن صدفة، كذلك لم يكن هلاك أبرهة صدفة. لقد أراد أبرهة القضاء على أية إمكانيات لرقي نبي العرب، وأراد الله تعالى أيضا بهذا الحادث القضاءَ التام على الحكم المسيحي في اليمن، لكي يتقدم محمد رسول الله ﷺ دونما تهديد أو خطر. وقلت من قبل بأن أمارات النبواءت المتعلقة بعصر النبي ﷺ والواردة في الكتب السابقة كانت قد أخذت في الظهور، وكان المسيحيون مطلعين على هذه النبوءات إما نصًّا في التوراة أو استنتاجًا من أقوال أوليائهم. كانت الأنباء التوراتية واضحة تمامًا مثل قول الله تعالى لموسى عليه السلام: "أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ" (التثنية ١٨: ١٨)، وقد وردت هذه النبوءة في مكان آخر أيضًا كالآتي: "يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي" (التَّثْنِيَة ١٨: ١٥). وما

دام الله تعالى قد قال لبني إسحاق أنه سيقيم نبيًا مثل موسى من وسط إخوتهم، فكان واضحًا أنه ليس المراد من إخوتهم إلا بنو إسماعيل. فإذا قلنا للسادات* مثلاً: "مِن إخوتكم" فلا يكون المراد السادات أنفسهم، وإذا قيل للأفغان أو المغول: "مِن إخوتكم"، فليس المراد الأفغان أو المغول أنفسهم، بل المراد شعب آخر. والجميع يعرف أنه كان من نسل إبراهيم عليه السلام قبيلتان معروفتان: بنو إسحق وبنو إسماعيل، فإذا قيل لبني إسحق إن الله تعالى سيقيم نبيًا مثل موسى من إخوانهم -كما ورد في نبوءة التثنية- فمعناه الواضح أن الله تعالى سيقيم نبيًا يكون من بني إسماعيل. ونعلم من العهد القديم أن بني إسماعيل قد استوطنوا برِّيةَ العرب، فهناك عبارات كثيرة عنهم؛ وقد ذُكر بنو إسماعيل بوجه خاص في كتاب النبي إشعياء في النبوءة المتعلقة بالعرب (إشعياء ٢١: ١٣-١٧)، مما يعني أن النبي إشعياء يؤكد أن بني إسماعيل كانوا مستوطنين برِّيةَ العرب. المهم، تعلن التوراة من جهة أن بني إسماعيل كانوا عربًا، ومن جهة أخرى تنبئ أن نبيًا سيُبعث في إخوة بني إسحق.. أي في بني إسماعيل. فبالجمع بين هاتين المجموعتين من النبوءات نتوصل إلى النتيجة الواضحة أن نبيًا كان سيبعث في بني إسماعيل.

فلما اقترب زمن تحقُّق هذه النبوءات بدأ الناس يُكثرون الحديث عن هذا الموعود. وكان أحد أسباب ذلك أيضا أن أولياء الله السابقين أيضا كانوا قد تنبأوا عن بعثة النبي ﷺ، وكان الناس على علم بذلك. الواقع أن من سنة الله تعالى أن ينبئ بأنباء عظيمة على لسان أنبيائه، كما يجعل أولياءه الآتين بعدهم أيضا ينبئون بأنباء مماثلة، ولذلك وُجدت في كتب اليهود أنباء كثيرة بحق النبي ﷺ لا توجد في التوراة، وهذه الأنباء قد أدلى بها أولياء اليهود في الحقيقة، شأنها شأن عشرات الأنباء التي قد أدلى بها أولياء الأمة المحمدية بشأن المسيح الموعود أيضا. لا شك أن الأنباء الأساسية أو الهامة تتم على لسان الأنبياء، ولكن الله تعالى يكشف بعض جزئياتها على يد الأولياء أيضا، مما يجعل العالم كله ينتظر هذا الموعود آخذًا في

* يعني "الأشراف"، أي نسل فاطمة الزهراء رضي الله عنها. (المترجم)

الحسبان كل هذه الأنباء المختلفة. ووفقًا لهذه السنّة الربانية؛ عندما اقترب زمن بعثة النبي ﷺ تنامى في النفوس إحساس عام بأن أحدا على وشك الظهور -وذلك كما حصل قبيل بعثة المسيح الموعود عليه السلام أيضًا، حيث أخذ المسيحيون ينتظرون المسيح، والمسلمون ينتظرون المهدي، والأمم الأخرى تنتظر موعودها- ولما كان النصارى يعتقدون بناءً على أنباء وردت في التوراة وفي أقوال أوليائهم أن هذا النبي سيُبعث من بين العرب؛ توجسوا خطر هجوم شديد على المسيحية. فقد ورد في البخاري وغيره من كتب الحديث أن قيصر الروم كان ينظر في النجوم وهو في الشام لمعرفة موعد ظهور النبي المختون.. أي نبي العرب، ولما بلغتْه رسالة النبي ﷺ كان أبو سفيان في الشام، ويقول أبو سفيان: إنه دعاني وسألني عن أحوال النبي ﷺ، ثم قال لقومه: أرى أنه هو نفس النبي الذي تشير إليه الأنباء في كتبنا. كذلك ورد في الحديث بأن قيصر نظر في النجوم ذات ليلة وقال إن النبي المختون على وشك الظهور (البخاري، كتاب بدء الوحي). وعندي أن قيصر الروم لما قال هذا الكلام بَعْدَ النظر في النجوم ظنّ أبو سفيان -بحسب الأفكار الشائعة في زمنه- أنه يتنبأ كما يتنبأ المنجّمون. وهذا كلام فارغ، إذ لا يوجد في العالم أي منجمين كهؤلاء ولا يدلون بأنباء كهذه، إنما الواقع عندي هو أن الأنباء الربانية عن ظهور نبي تتضمن أخبارًا ذات صلة بالنجوم والكواكب، فإذا وقعت دلّت على صدقه. وذلك كما كان الرسول ﷺ قد أخبر بأن لمهدينا آيتين لم تكونا منذ خلق السماوات والأرض لتصديق أي مدّعٍ، وهما أنه ينخسف القمر في أول ليلة من أُولى ليالي خسوفه من رمضان، وتنكسف الشمس في اليوم الثاني من أيام كسوفها في رمضان نفسه (الدارقطني)، فلو أن شخصا رأى خسوف الشمس والقمر وقال: قد علمتُ بالنظر في الشمس والقمر أن مدّعي المهدوية قد ظهر أو على وشك الظهور، فهل يصحّ القول بأنه قد قدّر هذا الأمر أو أدلى بهذه النبوءة بمجرد النظر في هيئة الشمس والقمر وحركاتهما؟ لا شك أنه سيقول إنه قد أدرك هذا الأمر برؤية الشمس والقمر، ولكنه يقصد أنه قد أدرك قرب ظهور الموعود برؤية تحقق النبوءة المتعلقة بالشمس والقمر. وبالمثل لم يكن المراد من قول قيصر الروم أنه نظر

كالمنجمين في النجوم وأدرك أن ظهور نبيّ العرب وشيك، بل الواقع أنه كانت هناك نبوءة معينة عن بعثة النبي ﷺ أدلى بها أولياؤهم وكانت ذات صلة بالنجوم، فلما رأى قيصر تحقُّق هذه العلامة برؤية النجوم أدرك أن ظهور النبي المختون قد قرب.

هناك حادث شهير في جماعتنا بأن أحد المشايخ المعارضين -لعله كان من منطقة "غُجْرات"- كان يقول للناس دائما: لا تنخدعوا من ادعاء الميرزا (يعني مؤسس جماعتنا)، لأنه قد ورد في الحديث النبوي صراحة أن من علامة المهدي كسوف الشمس والقمر في رمضان عند ظهوره، فما لم تنخسف الشمس والقمر في شهر رمضان بحسب هذه النبوءة، لا يمكن اعتباره صادقا في دعواه. وشاء القدر أن تحققت نبوءة خسوف الشمس والقمر في رمضان وهذا الشيخ حيّ، وقد أخبر أحد المسلمين الأحمديين الذي كان جارًا للشيخ أنه صعد على بيته في فزع عند الخسوف وأخذ يمشي على السقف ويقول: الآن سيضلّ الناس.. الآن سيضلّ الناس.

إن هذا الشيخ لم يفهم أنه ما دامت هذه النبوءة قد تحققت فإن الناس لن يضلّوا، بل سوف يهتدون بإمامهم بحضرة الميرزا. كذلك كان حال النصارى عند بعثة الرسول ﷺ، فإنهم كانوا يرون أن جميع العلامات الواردة في كتبهم عن ظهور نبي العرب قد تحققت، ولكن من ناحية أخرى أخذوا يقولون عند سماع دعوى النبي ﷺ: لقد تزامنت دعوى هذا الكذاب -والعياذ بالله- مع تحقُّق هذه العلامات على سبيل الصدفة، شأنهم شأن مسلمي اليوم؛ حيث يقولون إن علامات ظهور المسيح الموعود والمهدي قد تحققت بلا شك، ولكن دعوى هذا الكذاب -والعياذ بالله- قد تزامنت معها على سبيل الصدفة. أليس غريبا أن تكون مثل هذه الصدفة من نصيب كاذب لا صادق؟

باختصار، إن ما أراه هو أنه كانت في الصحف الأولى أنباء معينة عن مواقع النجوم وحركاتها، وقيل لهم أنكم إذا رأيتم العلامة الفلانية في النجوم فاعلموا أن ظهور النبي الموعود قد اقترب. وبعد رؤية علامة كهذه في النجوم قال قيصر: إني

قد رأيت في النجوم علامة النبي المختون. ولكن الذين سمعوا كلامه لم يكونوا على علم بالحقيقة، فظنوا أنه قد نظر في النجوم كما يفعل المنجمون وتوهّمَ شيئًا.

كذلك لم يكن العرب يسمون أولادهم باسم محمد، كما قلت، ولكنهم أخذوا يسمون أولادهم محمدا قبيل بعثته ﷺ على سبيل التفاؤل، وليس ذلك إلا لأنهم فهموا من الأنباء الواردة في التوراة أن اسم النبي الموعود سيكون محمدا. وهذا دليل على أنه كان عند الناس إحساس عام عندها عن اقتراب ظهور النبي العربي. ومما يدل على ذلك أيضًا أن فئات من اليهود قد هاجروا من الشام واستوطنوا المدينةَ وخيبر، إذ كان أولياؤهم قد تنبأوا أن "ذلك النبي" على وشك الظهور، ولكنه سيظهر في المناطق التي تلي بلاد الشام من جهة الجنوب (وفاء الوفاء ج١ ص ١٦٠). كأنهم كانوا يشيرون إلى المدينة وما حولها، ناصحين قومهم أن يتوجهوا إلى تلك المنطقة، حتى إذا بُعث ذلك النبي نجوا ببركة اتبّاعه من اضطهاد المسيحيين. إذن، فكان عندهم أخبارٌ بأنهم إذا آمنوا بذلك النبي الموعود رفع الله عنهم المحن. والثابت تاريخيا أن بعض اليهود المستوطنين المدينة وما حولها لم يهاجروا إليها إلا لمعرفتهم أن ذلك النبي سيظهر في تلك المنطقة، مما يدل على أن هجرة اليهود إلى الجزيرة واستيطانهم قرب المدينة لم يكن إلا بناء على الأنباء الإلهية.

كل هذه الأمور المذكورة أعلاه تدل على أن اليهود والنصارى كلهم كانوا ينتظرون بعثة رسول الله ﷺ بشدة. لقد رأى قيصر الروم علامات في السماء جعلته يعلن أن ظهور النبي المختون وشيك، وقد هاجر اليهود واستوطنوا قرب المدينة لأن أولياءهم تنبأوا بظهور النبي الموعود في تلك المنطقة، وأما العرب فأخذوا يسمون أولادهم باسم محمد قبيل بعثته ﷺ تفاؤلاً بأن يصبح ولدهم ذلك المنجّي الموعود للعالم. هذه الأمور الثلاثة تبين أنه كان عند العرب واليهود والنصارى كلهم إحساس عام وحديث عام بأن مولد ذلك النبي قريب، لأن علامات ظهوره قد تحققت بكل وضوح، ولكن اليهود والنصارى -أو معظمهم- ظنوا أنه سيكون من بينهم لا من أمة أخرى وإن كان عربي المولد. أما العرب فظنوا أنه سيظهر منهم. ولما كانت أنباء ظهوره شائعة بين كل الأقوام، فخاف كل منهم أن يستغلّها الفريق

الآخر استغلالا غير سليم. ولما كان المسيحيون سادة العالم ويرون أن انتشار هذه الفكرة بطابع سياسي يتنافى مع مصالحهم، ففكّر بعض ذوي السلطة منهم تشتيت كلمة العرب حتى لا يجتمعوا على مركز واحد نتيجة فكرة النبي العربي، فيسببوا المشاكل للمسيحية، ومن أجل ذلك بنى أبرهة كنيسته، ثم حاول ترويجها بين العرب بتقديم الرشاوى لبعضهم، ولما فشلت خطته هذه أراد هدم الكعبة نفسها، فأرى اللهُ عندها آيةً مهدت الطريق الذي حاول أبرهة إغلاقه، وهكذا كشف الله تعالى للعالم بأنه يوالي مَن أُسّست الكعبة مِن أجله، ويعادي مَن يريد هدمها، إذ لم يُرِدْ بهدمها الهجومَ عليها، وإنما أراد الهجوم على مَن أُسِّست مِن أجله.

ومن غرائب القدر أن الأمة التي حاولت إسقاط هذا النبيّ (ﷺ) صارت نفسها ملجأً وملاذا لجماعته فيما بعد. ذلك أن اليمن الذي كان يحكمه أبرهة كان ولايةً للنجاشي مَلِكِ الحبشة؛ وقد عاش النجاشي حتى زمن بعثة الرسول ﷺ. لقد هاجم جنوده مكة لهدم الكعبة حتى إذا ظهر مدعٍ بين العرب لم يستطع توحيد كلمتهم مستمدًّا قوته من هذا المركز. ولكن انظرْ إلى عجائب قدر الله تعالى، فقد وُلد النبي ﷺ في مكة وترعرع فيها، وأعلن النبوة بعد بلوغه الأربعين، فخالفه أهلها، ثم اشتدت معارضته بالتدريج حتى اضطرت فئة من جماعته للجوء إلى بلد آخر فرارًا من اضطهاد أهل مكة في السنة الخامسة لبعثته، وكان بلد هجرتهم هو بلد هذا النجاشي الذي هاجمت جنوده مكة لكسر شوكة النبي العربي الموعود. وذهب زعماء مكة وراء المسلمين إلى الحبشة وطلبوا من النجاشي أن يردّهم إليهم، ليصبّوا عليهم فظائعهم ثانية. أليس غريبًا أن المكيين الذين لم يجدوا حيلة للتصدي لأبرهة حين جاء يهاجم الكعبة حتى اعتصموا بالجبال؛ هم أنفسهم قد ذهبوا إلى النجاشي -وهو ملكٌ على أبرهة أيضا- للقضاء على جماعة النبي الموعود الذي أُسّست الكعبة من أجله، أما النجاشي الذي جاءت جنوده لهدم الكعبة حتى لا تقوم لمحمد ﷺ قائمة بين العرب، هو نفسه يهبّ لنصرته ﷺ في هذه المرة، فكأن المهاجم صار حاميًا، والحامي مهاجِما. (جامع البيان للطبري)

باختصار، لما وصل صحابة النبي ﷺ مهاجرين إلى الحبشة، بعثت قريش وراءهم بعض زعمائها –ومنهم عمرو بن العاص الذي أسلم فيما بعد، وعبد الله بن ربيعة– ليطلبوا من النجاشي أن يردّهم إليهم فيأتوا بهم إلى مكة. وقد ذهبوا إليه بهدايا كثيرة وقالوا له: أيها الملك، لقد أَبَقَ بعض عبيدنا إلى بلادك، فنرجوك أن تردّهم لنا. فدعا النجاشي المسلمين وسألهم عن حقيقة الأمر، فقالوا: أيها الملك، كنا نرتكب أنواع الفسق والفجور ونأتي صنوف المنكرات والمحرمات ونشرب الخمر ليل نهار حتى بعث الله فينا رسولا، فآمنّا به، وآمنّا بالله الأحد؛ نتجنّب الكذب ونتنكّب عن الفسق والفجور، ونرفع الصوت ضد الظلم، ونتعاون على البر والتقوى، ونسعى لفعل الخيرات والأعمال الصالحة النافعة للناس، ولكن قومنا اختلفوا معنا فصبّوا علينا أنواع الظلم، فلما اشتدّ اضطهادهم جئنا إلى بلادك لاجئين. أيها الملك، لقد سمعنا أنك ملك عادل، فنرجوك أن تعدل في قضيتنا، فلا تردّنا إلى قومنا. فقال الملك: عِيشوا في بلدي آمنين. ثم ردّ على زعماء قريش قائلا: لن أردّ المسلمين لكم.

فذهب هؤلاء في اليوم التالي وأثاروا القسيسين ضد المسلمين، وقالوا إن هؤلاء يسبّون مسيحكم. فثار القُسس في بلاط الملك وقالوا: كيف تترك هؤلاء القوم من دون عقاب، وهم يعارضون ديننا بشدة؟ فلا تهيئ لهم في بلدك ملاذا. فدعا المسلمين ثانيةً وقال لهم: ما هي عقيدتكم في المسيح وأمه مريم الصديقة؟ فقالوا: نحن نؤمن أنه نبي الله، وأُمه صِدّيقة، ثم قرأوا عليه أوائل سورة مريم التي تتحدث عن هذا الموضوع. فقال الملك: هذا لا بأس به (السيرة النبوية لابن هشام، ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة).

الواقع أن النجاشي كان مسيحيا موحِّدا؛ إذ رأى في صغره آية ربانية هدته إلى التوحيد. علمًا أنه لا تزال هناك حتى اليوم فرقة مسيحية موحّدة تؤمن بأن المسيح أفضل الأنبياء، وأنه لم يكنْ إلهًا، بل كان نبيا فقط (الموسوعة اليهودية، تحت كلمة:Unitarianism). فلما قال النجاشي إن المسلمين على الحق ثار قومه وقالوا: كيف تقول هذا؟ إن المسيح وأمه مريم متصفان بصفات الألوهية. فأخذ الملك قشة

وقال للمسلمين: والله ما زاد المسيح على ما تقولون نقيرًا. ثم قال لحاشيته: إذا كنتم تغضبون على ذلك فلا أبالي. لقد غدرتم بي حين كنت صغيرا (سِيَرُ أعلام النبلاء ج ١ص ٣٠٧-٣٠٩)، لكن الله تعالى ردّ لي المُلك، وجعلكم خائبين خاسرين. فكيف يمكن – بعد أن كبرتُ- أن أغدر بالله الذي أعطاني الملك وأنا صغير؟ إني لن أعظّم المسيح أكثر من الواقع.

وتفصيل الحادث الذي أشار إليه النجاشي هو أن أباه توفي وهو ابن ست سنوات أو سبع، فتولى عمّه زمام المُلك، ثم بعد فترة خطر بباله أن يتآمر مع القسس والأمراء، وقال سيضعف المُلك إلى أن يصل هذا الولد سن البلوغ، فهلا تعلنون تتويجي مَلِكًا؟ فرضوا باقتراحه إذ كان زمام الملك بيده والنجاشي لا يزال صغيرًا. وفي يوم من الأيام تكلم أحد رجال البلاط في بيته عن مؤامرتهم، فسمع ابنه الحديث، والأولاد يتحدثون لأصدقائهم بما يسمعون في بيوتهم، فجاء هذا الولد وأخبر النجاشي بأني سمعت أن عمّك على وشك إعلان تتويجه مَلِكًا. وكان النجاشي شجاعا، وكان عمه قد خرج في مهمة خارج العاصمة، فلما رجع عمه وقف النجاشي في الباب مصوّبًا السهم إلى قلبه وقال: انزلْ عن الحصان وسلِّمْ لي المُلك حالاً وإلا قتلتُك. فشاع خبر ذلك بين قادة الجيش، فتأثروا من شجاعة النجاشي الصغير وانضم إليه الشباب منهم متمرّدين على عمّه. فأدرك العم أن محاربة ابن أخيه لن تجديه نفعا، فسلّم له المُلك. هذا هو الأمر الذي أشار إليه النجاشي أمام حاشيته وقسسه وقال: إن أكثر ما تستطيعونه هو أن تطيحوا بعرشي، ولكن كيف يمكن أن أغدر بالله الذي نصرني عليكم وأنا صغير وأسبغَ عليّ نعمه في هذه المدة الطويلة؟ هذا محال مني. لقد علّمنا الله تعالى أن سيدنا المسيح نبي فحسب، فلن أعظّمه أكثر من ذلك. فخاف حاشيته ولزموا الصمت. ثم سمح الملكُ للمسلمين بالعيش في بلده آمنين.

أليس غريبا أن يخرج أبرهة مع جنوده لهدم الكعبة بل للقضاء على محمد ﷺ الذي هو الغاية من تأسيسها؛ إذ كان يؤمن أن النبي الموعود سيأتي من المسيحيين لا من غيرهم، ففكّر أن العرب ينتظرون بعثة هذا النبي من بينهم ويمكن أن تصبح

الكعبة نقطة اتحادهم إذا ما قام مدّعٍ بينهم، فلو هدمها تشتّت شملهم وظلوا مغلوبين أمام المسيحية. أليس مذهلاً أن يهيّئ الله تعالى الملاذ للمسلمين في وطن أبرهة الذي أراد وَأْدَ محمد رسول الله ﷺ قبل ظهوره؟

رب قائل يقول هنا: كيف تقول إن مُلك النجاشي أصبح ملاذا للمسلمين وأنهم ازدهروا في كنفه، في حين أن مكة وطن المسلمين الأصلي، و لم يهاجر منها النبي ﷺ ولا خواص أصحابه إلى الحبشة؟

والجواب أن الهجرة إلى الحبشة قد أنقذت المسلمين من اضطهاد أهل مكة إلى حد كبير؛ فلم تقع بعدها أحداث قتلهم وسفك دمائهم كما وقعت قبلها، وليس ذلك إلا لأن الكافرين لم يريدوا قتلهم لعداء شخصي، وإنما أرادوا به القضاء على الإسلام، ولكن لما هاجر ٨٠% من المسلمين إلى الحبشة، علم الكافرون أنهم لن يستطيعوا الآن اجتثاث شجرة الإسلام ولو قضوا على الباقين منهم في مكة. وهكذا فإن هجرة المسلمين إلى الحبشة قد خفّفت موجة الاضطهاد الجارية في مكة إلى حد كبير. لا شك أن الكافرين قد فرضوا بعد ذلك الحصارَ والمقاطعة على النبي ﷺ في شعب أبي طالب، فظلّ يعاني هناك من الجوع والعطش، كما آذوا باقي المسلمين بطرق شتى، ولكن الاضطهاد كان قد خفَّ إلى حد كبير لإدراك الكافرين أن إيذاءهم باقي المسلمين لن ينفعهم كثيرا. فثبت أن هجرة الحبشة أدت إلى ازدهار جماعة محمد رسول الله ﷺ، وقد حققوه تحت ظلّ قوم جاءوا من قَبل لهدم الكعبة، وبتعبير آخر للقضاء على محمد ﷺ. وقد حصل حادث مماثل مع موسى عليه السلام؛ حيث جعله الله تعالى يتربى في بيت فرعون الذي أراد قتله. وهناك في حياة الرسول ﷺ أحداث مماثلة أخرى، فمثلاً قد تربى ﷺ في صغره في بني ثقيف، وهم الذين بعثوا دليلهم مع أبرهة ليوصله إلى مكة لهدم الكعبة، وبتعبير آخر قد تربى النبي ﷺ وقضى سنين عديدة في صغره بين قوم قدّموا خدماتهم لمن جاء لهدم الكعبة. ثم انظروا إلى ما حصل في هذا الزمن، فكل الذين ادعوا المهدوية قد تصدى لهم الإنجليز (الموسوعة الأردية تحت كلمة: مهدي)، ومع ذلك قد ازدهر المسيح الموعود عليه السلام تحت حكم الإنجليز. يعترض البعض على ذلك قائلا إن مؤسس جماعتكم قد

اعترف في كتبه بأنه قد تربى تحت ظل الإنجليز؟ يا ليت أحدًا يسأل هؤلاء الجهلة: ألم يجعل الله موسى يتربى في ظل فرعون؟ ألم يربِّ الله تعالى جماعة محمد ﷺ في ظل النجاشي؟ الواقع أن من سنة الله تعالى أن يجعل أنبياءه يزدهرون تحت ظلّ أعدائهم، ليكون ذلك دليلا آخر على صدقهم ومفخرة لجماعاتهم. الحق أنّ قول مؤسس الأحمدية إني قد تربيت تحت ظل الإنجليز هو في الحقيقة بمنزلة قوله للمعارضين: انظروا إلى عجائب قدرة الله تعالى أنه قد كتب لي الازدهار في ظل قوم هم أكبر أعداء المهديّ! فهذه سنة الله العظيمة المستمرة منذ القِدم، فيكتب الرقي لجماعته تحت ظل الأعداء، وقد تجلّت سنته هذه في زمن الرسول ﷺ، كما تجلّت في زمن المسيح الموعود عليه السلام أيضا، وقد تجلت في زمن المسيح الناصري عليه السلام أيضًا، حيث كان اليهود يتهمونه مرارا أنه يريد المُلك بالقضاء على الحكومة الرومانية، ولكن ما حدث هو أنه عليه السلام تربى تحت ظل تلك الحكومة، بل قد انضمت تلك الإمبراطورية إلى صفوف خدامه في نهاية المطاف. وبتعبير آخر قد قضى المسيح عليه السلام على تلك الدولة، وذلك بتغيير دينها وإدخالها في المسيحية.

يزعم القسيس "ويري" أن لا علاقة لهذا الحادث بموضوع المسيحية (تفسير القرآن لـ"ويري" ج٤ ص ٢٧٩).. أي كان المهاجمون مسيحيين وقد سماهم القرآن أهل الكتاب، أما أهل مكة فكانوا كفرة، فكيف يمكن أن ينزل العذاب على أهل الكتاب من أجل الكفرة؟ وكأنه يقول: يعتبر المسلمون هذه السورة وحيًا من الله تعالى، ولكنهم لجهلهم ينسبون إليه تعالى كلاما غير معقول، حيث يقولون إن الله تعالى عاقب أهلَ الكتاب نصرةً للمشركين! فكيف تكون هذه آية ربانية؟ إنها ليست آية، بل إساءة إلى الله تعالى؛ إذ كان الواجب أن يعاقَب المشركون لا أهل الكتاب.

وهناك أمرٌ آخر يراه "ويري" غيرَ منطقي، هو أن التاريخ يؤكد إساءة العرب إلى كنيسة صنعاء، إذ تغوّط أحدهم فيها، كما يؤكد التاريخ أن الكنيسة احترقت بفعل أحد العرب؛ فالذنب ذنب العرب، إذ أساءوا إلى مكان عبادة الله تعالى، ثم حاولوا إحراقه أيضا، ولكن إله القرآن جاهل غبيّ -والعياذ بالله- حيث أنزل العذاب على

مَن ذهب لأخذ الثأر من المسيئين إلى الكنيسة، ونصر قوما أساءوا إليها وأثاروا أهلها بلا سبب. فهذا إله عجيب، حيث أنزل العذاب على المظلوم وأيد الظالم. لقد أهلك المؤمنين لإنقاذ مشركين يعبدون الأصنام!

كان "ويري" قسيسا أمريكيا قضى معظم عمره في مدينة "لدهيانه" في الهند، وألّف تفسيرا للقرآن الكريم بزعمه (تفسير القرآن لـ"ويري" المقدمة ص٨)، والواقع أنه قد حاول أن يجمع فيه كل ما أثاره المسيحيون ضد الإسلام من مطاعن واعتراضات عبر الزمن في شتى البلاد ومختلف اللغات. وتفسيره هذا ممتع لإنسان مطّلع على علوم القرآن ومعارفه الواسعة اطلاعا سليما؛ إذ يحتوي على كل ما هو لغو وغير منطقي وغير موضوعي، ولا أساس له ولا سند، بحيث تأخذ المرء حيرة بقراءته. الغريب أن أتباع النبي الذي علّمهم أنه إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأَدِرْ له الأيسر أيضًا (متى ٥: ٣٩)، هم اليوم يعملون بمبدأ أن من لم يلطمك حتى منذ سبعة أجيال؛ فالطمْ سبعة أجيال له. فهذا القسيس لم يجد في هذه السورة ما يعترض عليه، إذ اعتبرها مجرد قصة فارغة – مع أنها ليست قصة فارغة، بل نرى أن كل القصص التي ذكرها القرآن الكريم تتضمن أنباء مستقبلية، حيث أخبر الله تعالى بها أن هذا ما حصل في الماضي، وسوف يتكرر مثله في المستقبل– فراح يقول: الغريب أن القرآن يعتبر هذا الحادث آية! وكيف يكون آيةً مع أن الذين عوقبوا هم أهل الكتاب، إذ كانوا يؤمنون بكتاب نزل من عند الله تعالى بحسب القرآن أيضًا، أما الذين ظهرت هذه "المعجزة" بحقهم فهم مشركو مكة عبدة الأصنام، أفليس غريبا إذًا أن يعلن القرآن من ناحية أنه كتاب الله، ومن ناحية أخرى يخبر أن الله تعالى لم تأخذه الغيرة على المؤمنين بالمسيح الناصري وبكتابِه، فأخزاهم وأهلكهم، بينما أنزل ملائكته لإنقاذ عبدة الأصنام الذين أدانهم القرآن مرة تلو المرة، والذين لا قيمة لهم مقابل أهل الكتاب يقينا! هذا الأمر لغو وغير منطقي تماما، ومسيء إلى الله تعالى إساءة كبيرة!

والأمر الثاني الذي يركز عليه "ويري" هو أنه من الثابت تاريخيًا أن عربيًا قد ذهب وتغوط في كنيسة صنعاء، فأثار غضب الأمة المسيحية كلها بتنجيس معبدهم

المقدس. فما دام الخطأ من العرب و لم يخرج أبرهة إلا لمعاقبتهم على هذه الإساءة؛ فكان ينبغي أن يؤيده الله، لكن القرآن يخبر أن الله تعالى عاقب مَن خرج لأخذ الثأر من قوم هتكوا حرمة معبد، وأيّد بنصره القومَ الذين تغوّط أحدهم في المعبد، مع أن العقاب يجب أن ينزل على الظالم لا على المظلوم.

يتضح من نص ما كتبه "ويري" وما أثاره من طعن أنه لا يعترض على الحادث نفسه، إذ لا ينكر هجوم أبرهة على مكة بقصد هدم الكعبة ولا ينكر هلاكه أيضًا، كلا، بل يُقرّ بصحة الحادث كله، إلا أنه يعترض على مغزى القصة ولا يسلّم به.

والحق أنه ما دام الحادث قد وقع فعلاً، فلا يمكن الطعن في مغزاه، إلا إذا ثبت أنه مجرد صدفة لا آيةً أو معجزة. فغاية ما يمكن أن يقوله "ويري" هو إن قولكم بأن الله تعالى قد أهلك أبرهة بعذابه فهو كلام غير سليم. لا شك أن الحادث قد وقع، ولا شك أن المهاجم قد هلك، فقد خرج أبرهة للهجوم يقينًا مع جيش جرّار، ولكن الدمار الذي نزل بجنوده لم يكن عقابًا من الله تعالى، إنما كان مجرد صدفة، فلا يصح تقديمه على الناس آيةً على تعظيم مكة وخزي أبرهة.

لا جرم أنه لو ثبت أن هذا الحادث كان مجرد صدفة للَزِمَنا الإقرار بأنه لا يدل على عظمة الكعبة ولا على خزي أبرهة. فمثلا لو ذهب البعض من مومبائ للحج، فمرض بالكوليرا في الطريق ومات، فلا يقال أنه قد حل به عذاب الله تعالى بسبب ذهابه للحج، وإنما سيعتبر الجميع موتَه مجرد صدفة، بل قد تغرق سفينةُ الحجاج في البحر، ولن يعتبر أحد غرقها عذابا من الله تعالى. ولو قيل: لماذا لا يُعتبر غرق هؤلاء المئات من الحجيج عذابا؟ لقلنا: ليست هذه السفينة هي الوحيدة التي ذهبت بالحجيج وغرقت، بل تذهب عشرات السفن بهم كل سنة، وغالبيتهم يصلون إلى غايتهم بسلام، وهذا دليل على أنّ غرق سفينة كان مجرد صدفة لا عذابًا من الله تعالى؛ إذ لو كان عذابًا لنزل على أكثرهم. كذلك إذا أصيب بعض الحجيج بالكوليرا فلن نعدّه عذابا ربانيًا، وإذا سئلنا لماذا لا نعتبره عذابًا؟ قلنا: يذهب مئات الآلاف من الحجاج كل سنة، وكلهم تقريبا يصلون مكة بسلام، ولو توفي واحد أو اثنان منهم بالكوليرا فهو مجرد صدفة، أما لو مات أكثرهم بالكوليرا لكان هناك

احتمال أن يكون هذا المرض عذابا من الله، ولكن نجاة أكثرهم مع حدوث بعض الوفيات دليل على أن ما حصل مجرد صدفة لا أكثر. فمن حق "ويري" أن يقول إن الحادث مجرد صدفة، ولا يمكن أن يُعدّ ما نزل بأبرهة و جنوده عذابا من الله تعالى، وبالتالي فلا يمكن أن يكون دليلا على عظمة الكعبة وحرمتها. وبالفعل إذا كان هناك شبهة في كون هذا الحادث صدفة؛ فلا يحق لنا القول إن أبرهة قد تعرّض للعذاب وأن هذا دليل على عظمة الكعبة، بل يصبح هذان الادعاءان باطلين. فلذا لا بد أن نرى أولاً ما إذا كان هذا الحادث صدفة أم لا.

الواقع أن ما ذكرتُه من قبل في تفسير هذه السورة دليل على أن الحادث لم يكن صدفةً البتة؛ ذلك أنه كان هناك منذ زمن إبراهيم عليه السلام وعدٌ بحماية الكعبة وحفظها، وكان العرب يدّعون أن لا أحد يستطيع الهجوم على الكعبة المشرفة، ولو أراد فإن الله تعالى يمنع بيته بنفسه، وحادثة أبرهة خيرُ دليل على ذلك. وإلى هذا الأمر نفسه قد نبّه عبد المطلب أبرهةَ حين قال له: إنك إنسان غبيّ جاهل إذ تهتمّ بإبلك المائتين التي ساقها رجالي، ولا تبالي بالكعبة التي هي معبدك ومعبد آبائك؛ فإن عبد المطلب لم يردّ عليه إلا بقوله: إن ما قلتُه لك سلفًا هو ردّي على قولك؛ إنما طالبتك بإبلي المائتين لأني صاحبُها، وقد طالبتك بها تنبيهًا لك أن صاحب الشيء يهتم به، ولا يحتمل ضياعه، وإنني أؤمن أن الكعبة بيت الله، وأن الله صاحبه، وما دمتُ جئتك مطالبًا بإبلي، فكيف تظن أن الله تعالى لن يبالي ببيته؟ إذا كان الله تعالى هو صاحب هذا البيت، فلا بد أن يهتم به ويمنعك من الهجوم عليه. فالدليل الذي قدمه عبد المطلب على صحة موقفه هو أننا نؤمن أن الكعبة بيت الله، وأنه قد وعد بحمايته بنفسه، وإذا كان إيماننا صحيحا فلا بد أن تهلك إذا حاولت الهجوم على الكعبة.

هذا الحادث بحد ذاته دليلٌ على أن الوعد الإلهي بحماية بيت الله تعالى كان مستمرا منذ ألفي سنة، وكان العرب يعلنون أن الذي يهاجم هذا البيت فسيهلك حتما (تاريخ الطبري). وبعد انقضاء اثني عشر قرنا على دعواهم هذه، يخرج شخص للهجوم على بيت الله بجيش كبير عظيم العدة والعتاد مغرورا بقوته، ظنًّا

منه أن هدم الكعبة ليس بصعب عليه، فدُمِّر مع جنوده تدميرا حتى صار عبرة للعالم. فمن ذا الذي يمكن أن يعتبر هذا الحادث صدفة؟! كان العرب لا يزالون يدّعون منذ ألفي عام أن لا أحد يقدر على الهجوم على الكعبة، ولو حاول لهلك حتمًا، ثم بعد مرور ألفي سنة يهبّ شخص للهجوم عليها، ويهلك! أيُسمى هذا صدفة؟ إذا لم يكن عند العرب مثل هذه الدعوى عن الكعبة، ودُمِّر أبرهة وجنوده عند الهجوم عليها، لجاز لنا القول إنه صدفة، إذ جاء القوم للهجوم وتفشى فيهم مرض أفناهم، ولكن ادعاء العرب منذ ألفي سنة عن حماية مكة، ثم إيمانهم بذلك نسلا بعد نسل، ثم هجوم أبرهة بجنوده على الكعبة، ثم تحذيرهم لأبرهة بهذه النبوءة، ثم هلاكه بحسبها تماما.. كيف يكون هذا كله صدفة؟ فالقاعدة أنه إذا رُفعت أمامنا قضية فعلينا أن نرى أولاً فيما إذا كانت صادقة في بادئ النظر أم لا، أو ما هو انطباعنا الأول عنها، وماذا نستنتج منها في أول وهلة، وحينما ننظر إلى حادث أبرهة وفقًا لهذه القاعدة نجد أن أهل مكة ظلوا يعلنون منذ ألفي سنة أن من أراد الهجوم على الكعبة هلك، وبعد انقضاء ألفي سنة جاء عدو لهم بجنوده لهدم الكعبة، فحذره زعماؤهم أننا لا زلنا نتناقل منذ أجيال أن من يهاجم هذا البيت يُباد، فعليك أن ترتدع عما نويت، ولكنه لم يرتدع، فوقع ما حذّره منه والذي كانوا يتناقلونه منذ زمن إبراهيم الذي أدلى بهذه النبوءة، وهلك أبرهة مع جنوده. وإن كل من ينظر إلى ما حدث يدرك ببادئ الرأي أن هذه القضية تُحسم لصالح أهل مكة. إذن، فليس من واجبنا الآن أن نثبت أن هذا الحادث مجرد صدفة، وإنما هذا من واجب المسيحيين أن يثبتوا أنه مجرد صدفة ما داموا يدّعون ذلك. لقد كانت عند أهل مكة نبوءة عن حماية الكعبة منذ ألفي سنة، وقد أخبروا أبرهة عنها، لكنه رفض أن ينثني عن الهجوم عليها وهدمها، فما إنْ تقدّمَ خطوةً واحدة لهدم الكعبة حتى حلّ به عذاب الله، فهلك خائبًا. فمع وجود هذه النبوءة بينهم منذ ألفي سنة، وبعد تحقُّقها أمام الناس، كيف صار من واجبنا نحن المسلمين أن نثبت أن هذا الحادث كان صدفة! إنما هو من واجب المسيحيين أن يأتوا ببرهانهم على

أنها كانت صدفة، فإذا أتوْنا به فمن واجبنا تفنيده، ولكن ما لم يأتونا بدليل فمسؤولية إثبات كون هذا الحادث صدفةً إنما تقع عليهم هم.

ثم إن حدوث شيء على التوالي، يشكّل في حدّ ذاته دليلاً على صدقه. خُذوا مثلاً السلسلة، فالجميع يعلم أن السلسلة أَولى وأهمُّ من أيٍّ حلقة من حلقاتها، لأن الحلقة تابعة للسلسلة، فلو كان عندنا دليل على أن فلانًا يصدق القول منذ عشر سنوات متتالية، حيث يشهد بعضنا أنه وجده صادق القول منذ تسع سنوات، والبعض يشهد أنه وجده صادقًا منذ ثماني سنوات، والبعض يقول إنه لم يجرب عليه الكذب منذ سبع سنوات متتالية، فهذا التسلسل والتوالي في قوله الصدق دليل على أنه صادق، ولو جاءنا شخص واتهمه أمامنا بالكذب، لم نلتفت لقوله مطلقًا، بل نصدّق ما جربناه على هذا الصادق منذ عشر سنوات، ونبرئه من هذه التهمة الجديدة ونرد على المتّهِم: إذا كنت مصرا على ما تقول فعليك أن تأتي ببرهانك. فلو قال في الجواب: بل عليه أن يأتي ببرهان على أنه لم يكذب، لاعتبرناه من الحمقى؛ إذ نقول له: يجب أن تأتي أنت بالبرهان على صدق ما تقول، إذ يكفي دليلا على صدقه أننا لم نجرب منه إلا الصدق منذ سنوات طويلة متتالية. وهذا هو الدليل الذي قدّمه رسول الله ﷺ على صدق دعواه أمام قومه؛ فعندما أعلن دعواه بأمر الله تعالى، فمنهم من رماه بالجنون، ومنهم من اتهمه بالكذب، ومنهم من قال إنه ساحر، ومنهم من قال لقد اعتراه بعض آلهتنا بسوء وعقاب. فكثرت أقاويلهم في النبي ﷺ وشاعت بين الناس، فجمع ﷺ أهل مكة كلهم وخطب فيهم قائلا: أنتم أقاربي وتعرفونني منذ زمان بعيد ومطلعون على خصالي وعاداتي كل الاطلاع، فهل جربتم عليّ الكذب مرةً؟ فقال الجميع بكلمة واحدة: كلا، إنك لتصدق القول دائما، وكلنا نشهد على صدقك وسدادك. فقال لهم النبي ﷺ قولا آخر لكي يؤكدوا على اعتياده الصدق دائما -علمًا أن هناك أماكن يختفي فيها الجيش بسهولة، ولكن يستحيل أن يختفي جيش في البراري الجرداء إذ يُرى فيها المرء من بعيد، وتوجد حول مكة مثل هذه البراري- إذ قال لهم: لو قلت إن وراء هذا التلّ جيشا عظيما يريد الإغارة عليكم، فهل تصدّقونني؟ ومع أن هذا الأمر كان

مستحيلا قطعا، إذ ما كان لجيش أن يختفي وراء ذلك التل الصغير، إلا أنهم قالوا: نعم، سوف نصدّق قولك ونكذّب أعيننا.

ما أقواه من دليل على صدق النبي ﷺ حيث اعترف أهل مكة بألسنتهم أنهم يصدّقون من أجله هذا المستحيل بداهةً. فلما اعترفوا بصدق النبي ﷺ علنًا قال: إذا كنتم موقنين بصدقي لهذه الدرجة فها أنا أخبركم أن الله تعالى قد قال لي أني رسوله إليكم، وأمرني أن أنذركم وأمنعكم من عبادة الأصنام، وإذا لم تقبلوا قولي فسوف تهلكون وتبادون. فما كان مِن هؤلاء الذين أعلنوا من قبل أنهم لم يجربوا منه الكذب قط إلا أن أخذوا يضحكون عليه ويستهزئون، ثم افترقوا بين قائل إنه كذاب، وقائل إنه مجنون، وقائل إنه مخبول. ولكنك لو رفعتَ هذا الحادث أمام عاقل فسوف يحكم حتمًا بجنون هؤلاء الذين كانوا قبل دقائق يعترفون بأنه ﷺ صادق القول، ولكنهم الآن يعدّونه كذابا.

باختصار، إن سلسلة الأحداث المتسلسلة المتواترة حقيقةٌ مسلّم بها بداهةً، ولو قال المرء خلافها فعليه أن يأتي ببرهانه، وليس من واجب الآخر أن يأتي بالبرهان. كان العرب منذ ألفي سنة يعلنون أن الكعبة بيت الله وأنه يتولى حمايته، ويمكنك أن تقول كانت دعواهم مجرد وهم ووسوسة وإلحاد وكفر، إلا أن سلسلة ادعائهم هذه امتدّت لألفي سنة، ولم يكن يجرؤ أحد على مهاجمة الكعبة خوفًا من دعواهم هذه، وبعد انقضاء ألفي سنة ينبري شخص للهجوم على الكعبة ويهلك، فلا يمكن لأحد –مع كون الكعبة محمية خلال تلك الفترة بلا انقطاع– إلا أن يصدّق دعوى العرب. وإذا زعم أحد أن هذا الحادث ليس حلقة من هذه السلسلة الطويلة المستمرة من حماية الكعبة، بل هي حلقة لا علاقة لها بتلك السلسلة، فعليه أن يقدم الدليل على ما يدعي، فهذه مسؤوليته هو. إلا أنه فيما يتعلق بتسلسل حلقات هذه السلسلة فلا بد من الاعتراف أن ما ادعاه أهل مكة بهذا الصدد كان صحيحا ١٠٠%، وأن الأحداث أيضا أكدت صحة دعواهم. والآن إذا اعتبر أحدٌ الحادثَ صدفةً، فمن واجبه أن يأتي ببرهانه، وليس من واجب المسلم أن يقدِّم الأدلة على أن الحادث لم يكن صدفة.

باختصار، إن دعوى أهل مكة ثابتة بالنظر إلى النبوءة الإبراهيمية، وأيضا إلى سلسلة الوقائع التي حدثت. وإذا قال أحد خلاف ذلك فعليه أن يأتي ببرهانه، ولكن هذا البرهان لم يقدمه "ويري" ولا غيره من القسس.

والاعتراض الثاني الذي يثيره المعترض هو أنه إذا لم يكن الحادث صدفة، بل آية ربانية، فكان ينبغي أن يريها الله تعالى بحق المسيحيين لا ضدهم، وحيث إنها ظهرت ضد المسيحيين فلا نسلّم بها.

هذا القول جنون كله، فما دام الله تعالى قد أرى هذه الآية فعلاً فلا بد من التسليم أن الله هو الأعلم بالحقيقة مِن القسيس "ويري". إن قوله هذا يماثل قولَ أحد الأفغان السذج الذي كان يقرأ كتابًا من كتب الحديث، فمرّ بحديث يقول: كان النبي ﷺ يصلي وهو يحمل حفيده الإمام الحسن رضي الله عنه، فلما ركع أنزله عن ظهره وأجلسه بجانبه، وكان هذا الأفغاني قد قرأ من قبلُ في كتب الفقه أن الحركة الزائدة تفسد الصلاة، فما إنْ قرأ هذا الحديث حتى صرخ: لقد فسدت صلاة محمد (ﷺ). فقال له القوم: أيها الأحمق، إن محمدا ﷺ هو الذي علّمنا الصلاة، فكيف تطعن في صلاته؟ كذلك كان الله هو الأدرى بما إذا كان سيري هذه الآية بحق المسيحيين أم ضدهم. ولما ثبت أنها آية ربانية، فمن منتهى الغباء أن يقال لماذا لم يُرِها الله تعالى بحق المسيحيين. إن مثل هذا القول يماثل قول الأفغاني: لقد فسدت صلاة محمد (ﷺ). إذا كان عقلك لا يستوعب الحقيقة، فعليك أن تعترف- وقد ثبت أن الحادث ليس صدفة- أن الله تعالى هو الأعلم بالأمر وأن عقلك قد أخطأ. الواقع أن هنالك أناسًا يزعمون أنهم أعلم من الله تعالى، فقد قابلني أحد المثقفين بالثقافة الحديثة وكان محاميا، ووجه إليّ بعض الأسئلة، فأجبت عليها كلها، وقلت له: إنما السؤال الأساسي هو: آلله موجود أم لا؟ وإذا كان موجودا فلا يمكن أن تثار هذه الاعتراضات؛ إذ يقال عندها أأنت أعلمُ أم الله. فلم يلبث أن قال: أنا أعلم من الله. فضحك أصحابه على قوله. إلا أن هذا المحامي كان مضطرًا لذلك بعد إجابتي على مطاعنه كلها، إذ كان لا يستطيع إثبات ما يقوله، فلم يكن أمامه إلا أن يقول بأنه أعلم من الله، لأن الله تعالى إذا قال شيئا و لم يستوعبه عقله،

فكيف يقبله؟ وهذا هو حال "ويري" أيضا، فهو لم يقدر على أن ينكر وقوع الحادث أو يثبت أنه صدفة من الصدف، فراح يقول: لماذا أهلك الله المسيحيين بدلاً من مشركي مكة؟

غير أنه لا بد للمرء من الرد على مثل هذا المعترض، فها أنا أردّ على مطاعنه فيما يلي:

إن اعتراضه الأول هو قوله بأن المسيحيين كانوا أهل كتاب، وكان أهل مكة عبدة أصنام، فلماذا عذب الله المسيحيين ونصر الوثنيين؟

وجوابي هو إن اعتراضه هذا في حد ذاته يدل على إلحاد وجهل مُطْبِقين. ذلك أن الله تعالى لا يرى ما إذا كان الإنسان مسيحيا أو غير مسيحي، وإنما يراعي العدل والحق. فلو أن "ويري" قال: كان أبرهة على الحق وكان أهل مكة على الباطل، فكان ينبغي أن يعذَّب أهل مكة لا أبرهةَ، لكان قوله معقولاً -علمًا أن "ويري" قد احتجّ بهذا الدليل أيضا، وسأردّ عليه لاحقا- ولكنه يقول: لماذا عذّب الله المسيحيين إزاء الكافرين؟ وقوله هذا ظلم عظيم. الناس هم مَن ينحازون إلى الظالمين الموالين لهم، ويتهمون المظلوم، فهل يتوقع "ويري" من الله تعالى أن ينحاز للمسيحيين لكونهم مسيحيين فحسب، ضاربًا بالعدل عرض الحائط؟ إذا كان يرى أن ربه يمكن أن يفعل هكذا، فهذا شأنه، أما الإسلام فإنه يقدِّم إلها لا يظلم أحدا، بل يعلِّمنا نصرة المظلوم ومنع الظالم ولو كان أبانا أو أخانا أو صديقنا أو قريبا من أقاربنا. ذات مرة قال النبي ﷺ لصحابته: انصرْ أخاك ظالما أو مظلوما، فوجدوا هذه الوصية خلافا لبعض وصاياه السابقة، فقالوا في حيرة: يا رسول الله، نفهم كيف ننصر المظلوم، ولكننا لا نفهم كيف ننصر الظالم. قال ﷺ: انصروا الظالم بمنعه من الظلم، لأنه إذا استمر في ظلمه هلك (البخاري، كتاب المظالم). فكان نهيه ﷺ إياهم عن الظلم على هذا النحو أشد وقعًا في قلوبهم. لو قال لهم لا تنصروا الظالم لقال بعضهم إن المرء يضطر لنصرة إخوانه وأحبابه أحيانًا، ولكنه ﷺ بيّن هذا الأمر على هذا النحو وقال إذا نصرتم الظالم فقد أهلكتموه، فهكذا حقق الهدف الذي أراد، كما جعل كلامه أشد تأثيرًا في قلوبهم. إذًا، فالإسلام يعلّم أن يكون الإنسان

مع الحق والعدل بأي ثمن، ولكن هؤلاء القسس يرون أن الله تعالى -والعياذ بالله- أسوأ خُلُقًا من البشر، إذ يتوقعون منه أن ينحاز لدين أو طائفة، ضاربًا بالعدل عرض الحائط. إن المسيحية الحالية ليست بدين حق، ومع ذلك لنفترض أنها حق، فهل يرى "ويري" أن الظالم إذا كان من أتباع الدين الحق فعلى المرء أن ينصره ويؤيده ولا ينصر المظلوم ولا يسترد حقّه من الظالم؟ لا شك أن الأمم الغربية اليوم تتّبع هذه الاستراتيجية، ولكن لا أحد من الشرفاء والعادلين يعتبرها طريقا سليما. الحق أن أبرهة خرج لهدم معبد أهل مكة، وهذا ظلم شنيع، لا شك أنه كان مسيحيا، ولكنه كان مسيحيا ظالما، ولا أحد من الشرفاء ينصر الظالم، دَعْك أن تتوقع من الله تعالى أن ينصر الظالم ويسحق المظلوم لمجرد أن الظالم مسيحي والمظلوم وثني!

ثم ينبغي أن يوضع في الحسبان أن أبرهة لم يأت للإغارة على هؤلاء الوثنيين الكافرين، إذ أعطاهم أمانًا إذا لم يتعرضوا له، إنما جاء للهجوم على الكعبة نفسها. إن الذي تغوّط في كنيسة "القُلَّيس" هو أحد العرب، لكن أبرهة سارع لمهاجمة الكعبة بدلاً من مهاجمتهم. هل عملية التغوط صدرت من الكعبة حتى يهاجمها؟ إن عربيًا يتغوط، ولكن أبرهة يهاجم الكعبة! لا شك أن هذا العمل ينسجم مع تعاليم دين المسيحيين؛ إذ يؤمنون أن البشر أخطأوا ولكن الله تعالى صلب ابنه بدلاً منهم، ولكن لا أحد من العقلاء أو الشرفاء يجيز مثل هذه العملية، أي أن يقترف أحد جنايةً ويعاقَب غيرُه. ويتضح من التوراة أيضا أن معاقبة البريء مكان الجاني غير جائزة، فإن إخوة يوسف عليه السلام لما ذهبوا بأخيه بنيامين إلى مصر، أراد يوسف أن يستبقيه عنده، ولكنه لم يُبْدِ ذلك لأحد، ثم هيّأ الله الأسباب التي مكّنته من استبقاء أخيه عنده شرعيًا، إذ فَقَدَ القوم صُواعَ المِلك، وبينما هم يبحثون عنه سأل يوسف عليه السلام إخوتَه وهو يشكّ فيهم: ما عقابُ مِن وُجد الصواع في متاعه؟ قالوا: عقاب مثل هذا السارق إلقاء القبض عليه. فما لبثوا أن وجدوا الصواع في متاع بنيامين، فقال يوسف: الآن، لن يُسمح لبنيامين أن يرجع. فتقدّم أحد إخوته وقال: إن أباه شيخ كبير، وهو في معاناة من قبل لفقدان أحد أبنائه، وستزداد معاناته إذا لم يرجع

بنيامين إلى البيت، فنرجوك أيها العزيز أن تأخذ أَحَدَنا مكانه. قال يوسف عليه السلام: لستُ ظالما حتى آخذ البريء وأترك الجاني. مما يدل على أن التوراة تعترف أن عقاب البريء بدلاً من الجاني ظلم عظيم، ولكن المسيحيين يقولون لنا إن الناس أذنبوا، فصلب الله تعالى المسيح عليه السلام مكانهم. لا شك أن الأديان الأخرى أيضا ترفض هذه العقيدة، كما أن العقل والنُّبْل أيضا لا يرضيان بعقاب البريء عوضًا عن المجرم. ضَعْ هذا الأمر في الحسبان ثم فكِّر فيما حصل؛ يتغوط عربي جاهل همجي في كنيسة صنعاء، فيتميز الملك غيظا، ولكنه لا يعاقب ذلك العربي ولا أقاربه ولا قبيلته، بل يخرج بجيشه قاطعا مئات الأميال لهدم الكعبة التي هي مكان مقدس عند العرب كلهم. أي عاقل يمكن أن يعتبر هذه العملية انتقامًا عادلاً على الإساءة إلى الكنيسة؟ لقد أثبتُّ من الروايات التاريخية أن أبرهة أرسل إلى أهل مكة أنني لم آتِ لقتالكم، وإنما جئت لهدم الكعبة فقط، وإذا خلّيتم سبيلي رجعتُ بعد هدمها دون التعرض لكم. ما دام الخطأ من الإنسان فكان يجب أن يُعتبر هو مجرما، وإذا كان أحد يستحق العقاب فهو ذلك العربي الهمجي الذي تغوط في الكنيسة، وإذا كان الملك يريد أن يصبّ جام غضبه أكثر، فكان ينبغي أن يقبض على أقارب الجاني أو قبيلته أو يهاجم قومه، ولكن أبرهة يشنّ الهجوم على الكعبة بدلاً من عقاب المجرم. إنما مثله كمثل هندوسي يخاصم مسيحيا، فيستبدّ الغضب بالدولة المسيحية فتهدم معبدًا هندوسيًا، أو كمثل مسيحي يخاصم هندوسيا فتثور الدولة الهندوسية غضبًا وتهدم كنيسة مسيحية. يجب أن يكون بين الأمرين صلة وعلاقة. لو أخطأ زيد وألقي القبض على أفراد قبيلته لكان أمرًا مفهوما، أما أن يرتكب زيد جريمة فيُهدم معبد قومه، فهذا غير معقول. إن تصرُّف أبرهة نفسه يدل على أنه لم يخرج لحرب الكفار الوثنيين لإساءة أحدهم إلى كنيسته، وإنما ذهب لهدم الكعبة، ولذلك كان مجرمًا كبيرا عند الله تعالى، ولا يمكن تبرير فعلته بحجة أنه ذهب لأخذ الثأر لهتك حرمة كنيسته.

ثم إنني قد أثبت من قبل أن الهدف الأساس لهجوم أبرهة هو الحيلولة دون اتحاد العرب، وليس أيّ هدف ديني نبيل آخر، وإلا فهناك آلاف الكنائس في العالم،

ولكن المسيحيين لم يسعوا قط عند بناء أي كنيسة منها لأن يقدّسها أبناء الأمم الأخرى، أما أبرهة فلم يبنِ كنيسته إلا وسعى جاهدًا لأن يأتي الناس لزيارتها بدلاً من الكعبة، حتى إنه أعطى الرشاوى لبعض زعماء العرب ليقوموا بين قومهم بالدعاية لزيارتها. هل عملُه هذا من الدين في شيء؟ إن كل إنسان يحترم دينه من الأعماق، ولا يطيق سماع شيء خلاف دينه، ولم يكن العرب خَلْوًا من هذه المشاعر الدينية. كان أبرهة يعلم جيدا أن العرب يحبّون الكعبة من الأعماق، ولن يتخلّوا عنها بأي ثمن، ومع ذلك فقد عيّن بعض الزعماء العرب ليقوموا بالدعاية ضد الكعبة.

ثم إن محاولته لهدم الكعبة نفسها دليل على أنها كانت مكيدة سياسية من أجل غلبة المسيحية. كان هدفه أساسًا أن يقضي على ذلك الإحساس الذي تولد في قلوب العرب عن اقتراب ظهور نبي بينهم، تشتيتًا لشملهم وقضاءً على وحدتهم. إذًا فكان وراء هجومه هدف سياسي بغيض جدا، ومثل هذا الإنسان يستحق العقاب حتمًا، فعاقبَه الله بالفعل.

أما الاعتراض الثاني فهو أن أبرهة ذهب ليأخذ ثأر هتك حرمة الكنيسة، فلماذا عاقبه الله تعالى؟ لقد سبق أن أجبتُ على ذلك بأن أحد العرب ارتكب هذه الإساءة، ولكن أبرهة نفسه أعطى الأمان للعرب، فإنهم لما قالوا له إننا لا نريد التعرض لك ويمكنك أن تهدم الكعبة، فإنه تصالحَ معهم. إذا كان قد خرج لينتقم من العرب على هذه الإساءة، فكان ينبغي أن يغضب على ذلك العربيِّ الذي تغوط في كنيسته وعلى قبيلته وعلى قومه، ولكن توجّه إلى الكعبة رأسًا وظل يقول للعرب إني لا أعاديكم ولن أتعرض لكم إذا لم تتعرضوا لي. فالقول إنه ذهب لأخذ الثأر للإساءة إلى الكنيسة خلاف للواقع. هذا أولاً. وثانيًا: إن أخذ الثأر من معبد على إساءة ارتكبها إنسان ضد كنيسة ليس معقولاً.

ثم من المعلوم أن محاولة هدم المعبد المركزي لقومٍ لهو أمرٌ أشدُّ فظاعةً، والجميع يعرف أن كنيسة صنعاء لم تكن معبدًا مركزيا للأمة المسيحية، أما الكعبة فلم تزل معبد العرب المركزي منذ زمن إبراهيم عليه السلام. وإذا جاز عند النصارى هدم المعبد

المركزي انتقاما على الإساءة إلى معبد عام لهم، فهل يرضون أن يهدم المسلمون كنيستهم في القدس انتقامًا على الإساءة إلى بعض مساجدهم؟ فمن المعروف أنه كان هناك مسجد قديم بجنب محطة القطار بمدينة لاهور، وكان عمّال محطة سكة الحديد قد وضعوا فيه أدواتهم قليلة الاستعمال، وكان الإنجليز قد استعملوه مرابطَ كلابهم، فقام المسلمون مرة باحتجاج لتحرير المسجد، فأخذ عمال سكة الحديد متاعهم منه وفرّغوه، ولكن عاد المسجد بعد فترة غيرَ عامر، ولعلّه قد أصبح عامرًا بعد تأسيس باكستان.. فهل يحقّ للمسلمين أن يهدموا أكبر كنيسة للمسيحين في القدس بحجة أنهم قد أساءوا إلى مسجدهم هذا؟ فإذا كان جوابهم بالإيجاب سلّمنا بصحة موقفهم في قضية أبرهة. ولكن الواقع أنهم سيتميزون غيظا بمجرد سماع اقتراح هدم كنيستهم في القدس دَعْك أن يسمحوا بذلك. فأين العدل إذن؟ يقولون لنا إنّ أحد العرب المجانين قد تغوط في كنيسة صنعاء، وهذا مبرر كاف لهجوم أبرهة على الكعبة التي هي أقدس معبد عند العرب. كلا، بل إن ما فعل أبرهة كان جريمة عظيمة، وكان لا بد للظالم أن ينال العقاب، فعاقبَه الله تعالى.

لقد سبق أن ذكرتُ أن هذه السورة تشير في الحقيقة إلى الزمن الأخير للإسلام، حيث بين الله تعالى للمسلمين أن العالم المسيحي قد حاول الحيلولة دون انتشار دين محمد ﷺ وازدهاره حتى قبل ولادته؛ أعني أنهم لما رأوا تحقُّقَ أمارات تدلّ على قرب ظهور نبي العرب توجّهوا إلى الكعبة لهدمها، ليقضوا على نقطة وحدة العرب وليعرقلوا طريق ازدهار النبي الموعود الذي ينتظره العرب بشدة، لكن الله تعالى لم يسمح لهم بهدم الكعبة تعظيمًا لبعثة محمد ﷺ، وبذكر هذا الحادث قد نبّه الله تعالى المسلمين أن العالم المسيحي سيسعى في المستقبل للقضاء على قوة محمد ﷺ، فلا تيأسوا من مكائدهم، إذ كيف يمكن لله الذي قد أرسى تعظيم نبيه ﷺ واحترامه حتى قبل ولادته أن يسكت على الإساءة إليه ﷺ وإلى دينه ويدَع عدوَّه ينجح في نيَّاته الشريرة ويدمّر دينه بعد إعلان نبوته، وبعد تضحياته المذهلة التي لا نظير لها، وبعد ضرْبه أروع أمثلة على التفاني في حب الله تعالى، وبعد إنشائه جماعة من الصالحين الأطهار من الطراز الأول، وبعد عرضه على الناس شريعته الكاملة

المنـــزهة عن أي نقص وعيب، وبعد انتشار دينه في العالم كله؟ من المستحيل لكل عاقل عارف بهذه الأحداث ومؤمن بمحمد ﷺ أن يصدّق ولو لحظةً أن المـــسيحية يمكن أن تنجح في هذه المواجهة. من المحال أن تساور أيَّ مسلم الشبهةُ في أن هذه المواجهة بين الإسلام والمسيحية سيكون مصيرها كمصير أبرهة حين جـــاء لهـــدم الكعبة. لكن المؤسف أن المسلمين لا يوقنون اليـــوم أن الإســـلام سينتـــصر وأن المسيحية ستنهزم في هذه الحرب، مع أن القرآن بين أيديهم، ومع أن سورة الفيـــل بين دفتيه، ويرونها ويقرءونها كل يوم فيه. ولا أعني باليقين مجرد ثرثرة لسان، بـــل أعني ذلك اليقين المعقول المقرون بجهود ومساعٍ. أما الدعاوى باللسان، فلا شـــك أن كل مسلم يعلن أن الإسلام سينتصر، ولكن فيما يتعلق باليقين بانتصار الإسلام وفوزه في هذه الحرب بين الديانتين، فإن ٩٩% منهم غير موقنين بذلك.

لعلكم تظنون أن ما قلته مخالف للواقع؛ إذ هناك حرب يخوضها المـــسلمون في فلسطين، وهناك جهود يبذلونها في الهند أيضا، فكيف يصح القول إن ٩٩% مـــن المسلمين لا يوقنون بانتصار الإسلام؟ وجوابي أن اليقين الصادق يكـــون مقرونـــا بالعمل دومًا، والإيمان بدون العمل لا يسمى إيمانا صادقًا، إنما هو وهم ووسوســـة وضعفٌ خُلقي. إذا كان المرء صادق الإيمان فلا بد أن يعمل بحسبه. وعلى ســـبيل المثال، إذا مرض ولدك، وكنتَ تعلم يقينًا أنه سينجو بالعلاج، فهـــل تقـــصّر في علاجه؟ إذا قصّرت في علاجه فلا يخلو ذلك من أمرين: فإما أنك جاهل بقـــوانين الله تعالى، والجاهلُ عديم الإيمان، إذ قال الله تعالى في القـــرآن الكـــريم مـــرارا إن العارفين والعلماء هم المؤمنون بالله تعالى؛ فإذا أُصيب ابنك بالالتهاب الرئوي مثلاً ولم تعالجه بل ظللتَ تقول إن الله تعالى سيرحم ابني بفضله، فمن ذا الذي يقول إن إيمانك بالله إيمان صادق؟ إذ إن الجاهل هو الذي ينسب إلى الله تعالى جهله وغباءه ويظن أن هذا دليل على إيمانه. وإما أنك لا تهتم بعلاجه لإدراكك أنـــه ســـيموت الآن حتمًا، فلا فائدة من إضاعة المال في دفع فواتير الأطباء. فثبـــت أن الـــذي لا يجهل قوانين الله تعالى ويوقن أن ابنه سيتماثل للشفاء، فلا يتقاعس في علاجه أبدا. فلو أن المسلمين أيقنوا أن الإسلام سينتصر على المسيحية حتمًا لما تقاعـــسوا عـــن

السعي والتضحية في الدفاع عنه، والتي لا بد منها لانتصاره. إنهم يرون بأم أعينهم أن المسيحيين أكبر منهم حكمًا إذ يحكمون على بقاع هي أوسع كثيرا من أراضيهم، ويدركون أنهم أكثر منهم مالاً إذ يملكون ١٠٠ ألف روبية مقابل كل روبية يملكها المسلمون، ويعلمون أنهم أكثر منهم سلاحًا إذ يوجد عندهم عشرات المدافع مقابل كل سيف، وطائرةٌ مقابل كل حصان ضالع، وقنابل إزاء كل حجرِ مقلاع عند المسلمين. وهذا الكلام ليس مبالغا فيه، بل يمكن أن يحلف الإنسان على ذلك، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ماذا أعدّ المسلمون مقابل هذه المصيبة الكبرى التي حلّت بالإسلام؟ وما هي التضحيات التي يقدمونها للدفاع عنه؟ لقد قرأتُ قبل أيام في جريدة عراقية مقالاً عن فلسطين قال فيه صاحبُه لأهلها بكل قوة: تدّعون أنكم تكنّون لفلسطين حبًّا عظيما، وهل علامةُ حبكم أنكم بِعتم لأعدائكم بنادقكم حين وجدتم سبعين جنيها لكل بندقية بدلاً من عشرة جنيهات وهو ثمنها الحقيقي، دون أن تفكروا ماذا تفعلون. لقد غدرتم ببلدكم، وما دام هذا هو حال حبكم بلدَكم فكيف تدَّعون أنكم سوف تنتصرون في فلسطين؟ وهذا ما فعل المسلمون في الهند أيضا، ففي الأيام* التي كان السيخ فيها يختطفون نساء المسلمين وبناتهم، كان بعض الغدارين يشترون البنادق من حزب "مسلم ليغ" (المؤتمر الإسلامي) ويبيعونها للسيخ.

هذا هو عمل المسلمين، ومع ذلك يرفعون هتاف التكبير ظانين أنهم سينتصرون بالهتافات فقط. الحق أن هتافات تكبيراتهم زائفة، ودعاوى انتصاراتهم باطلة، وظنهم أنهم مؤمنون بالإسلام مجرد وهم وانخداع. إنهم لا يحبون الله تعالى ولا رسوله ولا القرآن ولا الإسلام، وإن رقيهم محال ما لم يُصلحوا أنفسهم.

لا تزال هناك ضجة في فلسطين ويظن العالم الإسلامي أن الفلسطينيين ذوو قوة ومنعة، مع أن إخواننا الموجودين هنالك يذكرون في رسائلهم ما ترتجف من هوله

---

* يشير حضرته ﷺ إلى أيام انقسام الهند وتأسيس دولة باكستان، حيث وقعت مجازر رهيبة واضطر كثير من المسلمين للهجرة إلى باكستان. (المترجم)

القلوب. فقد كتب أحد دعاتنا أن وزير الحرب في إحدى الدول العربية هنالك قابلَه وأخبره أنه ليس عندنا أي قدرة، فاكتبوا إلى أهل باكستان أن يساعدونا، فإن الدعاوى التي نطلقها مجرد خداع لا حقيقة لها. أما الوضع الراهن فهو أن مصر وسوريا والعراق ولبنان وشرقي الأردن كلها قد شنّت هجوما موحّدا على اليهود، ولكن اليهود ينتصرون في كل موطن باستمرار، وليس سبب ذلك إلا أن المسلمين ظلوا يعلنون أنهم سوف يقضون على اليهود دون أن يعدّوا لذلك عدّتهم، فلما نشبت الحرب أخذ العدو ينتصر عليهم باستمرار. يقال اليوم: ما ذنبُ المسلمين، فإن بريطانيا وأمريكا قد امتنعتا عن إمدادهم بالأسلحة! ولكن السؤال: ألم تكن هذه الدول قد امتنعت عن إمدادهم بالأسلحة قبل سنة، فلماذا لم يأخذوا عدّتهم قبل سنة؟ ولماذا يشتكون اليوم أن أمريكا وبريطانيا قد امتنعتا عن إمدادهم بالعتاد؟ الواقع أن المسلمين لو كانوا على يقين أن الله تعالى سوف ينصرهم على عدوهم كما نصر الكعبةَ ضد أبرهة لعمِلوا وأعدّوا عدتهم، ولم يترددوا بالتضحية بأي شيء في سبيل رقي الإسلام، ولو فعلوا ذلك لحالفهم نصر الله تعالى. ولكن الإنسان لا يستعدّ للتضحية من دون سبب، إنما يستعدّ للتضحية نتيجة اليقين، فمَن أيقن أن عدوه لا يستطيع أن يهزمه لم يتردد في تقديم التضحيات، ومَن أيقن أنه لو مات دخل الجنة لم يتردد أيضًا في التضحية بأي شيء. إن اليقين هو الذي يولّد الشجاعة في الإنسان. إن اليقين هو الذي يحفّز على التضحية والإيثار. إن اليقين هو الذي يثبّت قدم الإنسان في الشدائد. وأيُّ شيء هو أدعى لليقين في قلب المؤمن من قول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.. أي أيها المسلم، ألم تر كيف فعلْنا بأصحاب الفيل؟ فلماذا تصاب بالقنوط برؤية القوة المتزايدة للمسيحيين؟ إن ربك هو نفس الإله الذي كان في زمن أصحاب الفيل. إنه ﷻ لم يصبح مفلوجا ولا عجوزا ولا عاطلا ولا عديم القدرة. إنه حيٌّ اليوم كما كان حيًّا من قبل، وقويٌّ اليوم كما كان قويًّا من قبل، فكيف تظنون أنه لن ينصركم في ساعة العسرة هذه ولا يخرج بسفينة الإسلام إلى برّ الأمان؟ إذا تولد مثل هذا اليقين في قلب المرء فلا يبالي بالتضحية بنفسه وماله، بل يرى التضحية بنفسه وأهله وأولاده وماله

وعقاره أمرًا سهلاً بسيطا. ولو تحلى المسلمون بهذا اليقين اليوم لصاروا قوة عظيمة في العالم مرة أخرى، بل الأهم من ذلك أنهم لو تحلّوا بالتضحية والإيثار لنـــزل الله من السماء لنصرتهم برؤية إيمانهم قائلا: لقد قام عبادي بالتضحية بدورهم، فإذا لم أنصرهم الآن فسوف أُتّهم بخيانة العهد. ولكن المؤسف أن المسلمين لا يتوجهـــون إلى هذا الأمر ويتخاصمون على أتفه الأمور. يهتمون بالمناصب والـــوزارات، ولا يهتمون بالهدف الذي هو مناطُ حياتهم وإيمانهم. هناك نيران مضطرمة في العـــالم، وروضة النبي ﷺ مهددة بالخطر، ولا يبرح اليهود يكتسبون القوة والنفـــوذ علـــى مقربة من روضته ﷺ، بل يريدون الاستيلاء على الجزيرة العربية كلها. يروى أنـــه قبل عدة قرون من اليوم –حين لم يكن لليهود قوة– قد جاء بعض منهم إلى المدينة المنورة متنكرين، وحفروا نفقًا ليصلوا إلى قبر النبي ﷺ ويُسيئوا إليه، ولكن الله تعالى كشف أمرهم على السلطان المسلم عندها، فرآهم في الرؤيا وهم يقومـــون بهـــذه الفعلة الشنيعة، فألقى القبض عليهم. فإذا كان هؤلاء القوم لم يتورعوا في زمن ذُلّهم وهوانهم عن الإساءة إلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ، فما بالك بهم إذا نالوا الحكم على الجزيرة والشام؟ فما أشدَّه من خطر يحدق بالإسلام اليوم! ولكن المـــسلمين للأسف منصرفون إلى أمور تافهة غافلين عن هدفهم الحقيقي، مع أن التـــضحية – والتضحية وحدها– هي التي سيحيا بها الإسلام ثانية. ما الضير لو متنـــا في هـــذه الحرب؟ فإن حياة ساعة بعزٍّ أفضل من حياة ألف سنة في ذلّ. لا جـــرم أن كـــل مؤمن غيور لن يطيق العيش في ذلّ، وإنما سيعتبر الموت بعزٍّ أفضل من العيش بـــذلّ آلاف المرات.

باختصار، إن قول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ يتضمن نبوءة عظيمة عن المستقبل، حيث بيّن الله تعالى أن المسيحية سوف تكتسب القـــوة في الزمن الأخير وستسعى للقضاء على الإسلام، ولكن الله تعالى ســـوف يحمـــي الإسلام من هجوم الأعداء كما فعل في الماضي، وسوف يكون مصيرهم كمـــصير أصحاب الفيل.

لقد أشرتُ من قبل أن العرب أخذوا يسمّون أولادهم باسم محمد تفاؤلاً قبيل بعثة النبي ﷺ بعد أن سمعوا أن النبي الموعود سيأتي باسم محمد، وهذه الظاهرة المتزايدة أقضَّت مضاجع المسيحيين، فأرادوا تدمير الكعبة حتى لا يبقى أي إمكانية لرقي العرب. وقد رأينا في هذا العصر أيضا اتجاهًا متزايدا إلى ادعاء المسيحية والمهدوية، وذلك لأن زمن ظهور هذا الموعود كان قد اقترب (تذكرة المهدي ج١ ص ١٩١-١٩٣). يمكنك أن تمعن النظر في تاريخ الإسلام كله، وستجد أن الذين ادعوا المهدوية في القرن الماضي وحده كانوا أضعافَ المدعين الذين ظهروا في القرون الاثني عشر التي سبقته. هذا الفرق الهائل دليل على وجود هذا الاتجاه المتزايد عند الناس، بسبب قرب زمن ظهور المهدي والمسيح. وكما أن المسيحيين أصيبوا بالقلق في زمن النبي ﷺ وقبيل بعثته، كذلك أقضّت هذه الظاهرة المتزايدة عن المهدوية والمسيحية مضاجعَ المسيحيين في هذا العصر، إذ ظنوا أن هذا سيضعف المسيحية مقابل الإسلام، ولكن كما أن جماعة النبي ﷺ في ذلك الوقت لاذت بالحكومة المسيحية التي أراد أحد ولاتها هدم الكعبة، كذلك نجد في هذا الزمن أن المهدي الموعود لاذ بحكومة قوم أرادوا القضاء على فكرة المهدوية.

يعترض بعض المعارضين في هذا السياق قائلين: تعتبر الجماعة الأحمدية قرية قاديان مكانًا مقدسا لها، فلماذا وقعت اليوم في قبضة الهندوس والسيخ!

فليعلم هؤلاء أن إخراج المسلمين الأحمديين من قاديان اليوم حلقة من سلسلة المؤامرة المسيحية هذه، فمع أن هذه العملية تبدو من فعل الهندوس، إلا أن العقل المدبر لها هو المسيحي اللورد "مونت بيتن" في الواقع. وكنتُ أوّل مَن قال في مقالاته إن منطقة غورداسبور لم تُقطع للهند عند تأسيس باكستان إلا لضمّ ولاية كشمير إلى الهند، وأن هذه المؤامرة قد نسجها اللورد "مونت بيتن" حتمًا. وقد بدأ اليوم بعض المسؤولين الحكوميين الباكستانيين وبعض الذين يقيمون خارج الهند يؤكدون قولي في مقالاتهم. بيد أن هذه السورة تشدّ من عزائمنا وتزيدنا يقينًا بأن أصحاب الفيل سيدمَّرون اليوم أيضًا كما دُمِّروا في الماضي.

وهناك وحي بالفارسية تلقاه المسيح الموعود عليه السلام وهو:

شخصے پائے مَن بوسید ومَن گفتم کہ سنگ اسود منم . (التذكرة ص ٣٦)

أي: رأيت شخصًا يقبّل قدميّ، فقلتُ: نعمْ نعمْ، أنا الحجر الأسود.

والحق أن كل مأمور رباني في أي زمن يكون بمثابة الحجر الأسود لجماعته، لأنهم يقبّلونه ويلتفّون حوله مما يزيد الدين قوة. وإن تقوية الدين اليوم منوط بالمسيح الموعود وحده، وهو الحجر الأسود الروحاني في هذا العصر، إضافةً إلى الحجر الأسود المادي الموجود في الكعبة المشرفة. ثم إن آيات سورة الفيل قد أوحيتْ إلى المسيح الموعود عليه السلام أيضا. ثم كما أن الهدف الأساس لهجوم أصحاب الفيل هو القضاء على محمد رسول الله ﷺ، كذلك فليس سبب هذا الهجوم الذي شُنَّ على الأحمدية إلا أن كل هندوسي وسيخي ومسيحي يدرك جيدا أن الإسلام إذا أصبح غالبا اليوم فإنما يصبح بواسطة الأحمدية، فالهدف الأساس لهذا الهجوم هو القضاء على محمد رسول الله ﷺ أصلاً، إذ ليست مهمة المسيح الموعود عليه السلام أن يثبت وجوده، وإنما أن يثبت وجود النبي ﷺ. يقول حضرته عليه السلام في بيت شعر له بالأردية ما تعريبه: إنه ﷺ هو كل شيء ولستُ بشيء؛ وهذا هو قراري الفيصل.

فكما أن أبرهة وجنوده الذين جاءوا لهدم الكعبة في الماضي خابوا وخسروا، كذلك نحن نعلم بل نوقن يقينا كاملا أنه لو اجتمعت كل قوى العالم للقضاء على هذه الجماعة التي أقامها الله تعالى في هذا العصر لإقامة دين محمد ﷺ، فلن تنجح في ذلك. نحن نعلم أننا ضعفاء، وندرك أننا لا نملك قوة ولا حيلة، ولكننا نعلم أيضا أن جنود السماء سوف تنزل لنصرتنا، وأن العالم سيرى مشهد ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ باستمرار إلى أن يصبح الاسلام غالبا في العالم كله مرة أخرى على يد الإنسان نفسه الذي رفضه المسلمون الآخرون جهلاً منهم، وإن الذين يعارضوننا منهم اليوم سوف يرجعون إلينا نادمين قائلين لنا ما قاله إخوة يوسف له، وسوف نجيبهم بما أجاب به إخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾(يوسف:٩٣).

أليس من المستغرب أن العالَم الخارجي، أعني عالَم الكفر والإلحاد الذي تحاربه جماعتُنا، يدرك أن موت المسيحية إنما هو في انتشار الأحمدية، ولكن المسلمين الآخرين يظنون أن في انتشار الأحمدية هلاك الإسلام -والعياذ بالله. أتذكّر جيدا أنه جاء إلى قاديان لزيارتي في أوائل أيام خلافتي القسيسُ والتر (walter) وهو سكرتير النشر للحركة المسيحية الهندية All India Y.M.C.A، والقسيسُ هيوم (Hume)، والسيد ليوكس (Lucas) عميدُ كلية فورمن كريستشن بلاهور، وتحدثوا معي في شتى الأمور، وبعدما عادوا قال السيد ليوكس (Lucas) في محاضرة ألقاها أمام المسيحيين في كولومبو: لعلكم تحسبون أن الحرب ضد المسيحية ستجري في المدن الكبيرة والجامعات الضخمة، ولكني أخبركم أنني قد رجعتُ الآن من قرية لا يوجد فيها قطار ولا تلغراف -لم يكن القطار قد وصل إلى قاديان بعد ولا التلغراف- بل هي قرية بسيطة جدا، وغاية ما يمكن أن تسمّوها قرية كبيرة، ولكني قد رأيت هناك تجهيزات عظيمة لشن الحرب على المسيحية، مما جعلني أرى أن الحرب القادمة التي ستحسم حياة الإسلام أو حياة المسيحية لن تجري إلا في قاديان.

هذا رأي عميد كلية فورمن كريستشن بلاهور، وقد نُشر في جريدة في سيلان (سيريلانكا)، ولكن من سوء الحظ أن المسلمين الذين أقام الله تعالى هذه الجماعة الربانية لإخراجهم من الحضيض، هم أنفسهم يعرقلون سبيلها بشتى المكائد، بدلاً من أن ينتفعوا منها. فالله وحده يفتح عيونهم ويمنحهم الإيمان الحق والتقوى الحقيقية.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾

شرح الكلمات:

تضليل: ضلَّله: سيَّره إلى الضلال. (الأقرب).. أي أبعدَه عن الدين أو الحق أو الطريق. والمراد من قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أن الله تعالى أبعدَ كيدهم عن طريق النجاح، لأن هذا هو المعنى الذي ينطبق هنا مقابل الكيد.

التفسير: لقد تبين من معنى التضليل المذكور أعلاه صحة ما قلتُه في تفسير الآية السابقة. لقد قلت إن قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ إشارةٌ إلى أن الله تعالى قد أبطل مكائد المسيحيين لأمدٍ طويل وبشكل دائم، ولذلك لم يقل الله تعالى هنا: "ألم يُضِلَّ كَيدَهم".. بل قال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾.. والتضليل مصدر، والمصدر يفيد الدوام وطول الأمد. فلو قلنا مثلا: قام زيد، فهذا يفيد قيامه فقط، أما قولنا: زيد قائم، فيعني أنه قائم منذ مدة طويلة، وهناك أملٌ أن يظل قائما هكذا. فقوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ يبين أنه لم يبطل مؤامرات المسيحيين حين جاءوا للهجوم على الكعبة المشرفة فحسب، بل أبطل بكسر شوكتهم مكائدَهم كلها التي كانوا سيكيدونها لفترة طويلة، ليمكّن رسولَه ﷺ من النمو والازدهار دونما عائق. وبالفعل ظل المسيحيون مغلوبين مقابل الإسلام فترة طويلة، ولكنهم نالوا الغلبة في الزمن الأخير ثانيةً بحسب أنباء القرآن الكريم، وقد قرر الله تعالى الآن أن يهزم المسيحية ثانيةً بأيدينا إن شاء الله.

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٤﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٥﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

أبابيل: هي كلمة لا مفرد لها، ولكن البعض يرى أنها جمعُ إبَّوْل (جامع البيان).

يظن عامة الناس عندنا أن "أبابيل" هو نفس الطير الذي هو مشهور عندنا بهذا الاسم نفسه، ولكن هذا خطأ. ما نسميه الأبابيل عندنا يسمَّى الخفّاش بالعربية (لسان العرب). الحق أن الأبابيل لا تعني طيرًا معينا، بل تعني فرقًا وجماعات، والمراد من قوله تعالى ﴿طَيْرًا أَبابيل﴾.. أننا أرسلنا الطيور جماعاتٍ وأسرابًا (أقرب الموارد). وكلمة الأبابيل تعني الفِرَق، وتُستخدم للناس والحيوانات والطيور على السواء (القاموس المحيط تحت كلمة: أبل)، فيقال جاءت الخيل أبابيل.. أي جماعات من هنا وهناك. ولو سمي جيش عظيم من الناس أبابيل فالمراد كتائب وراء كتائب وفوج بعد فوج. كما يعني الأبابيل الجماعات العظام. ومن معانيها أقاطيع تتبع بعضها بعضا (تفسير البغوي وفتح البيان). فقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ يعني أنه تعالى أرسل عليهم الطيور جماعات وأسرابا مرة من هنا ومرة من هناك. وفي هذا أيضا إشارة الى تفشي مرض الجدري في هذا الجيش وافتراسه لهم، ففروا تاركين وراءهم جثث موتاهم، فجاءت أسراب النسور والحدآن من كل طرف وصوب لتأكل لحومهم نهشًا وضربًا وتمزيقا.

سِجِّيل: حجرٌ يشبه الحجرَ المسنون من الطين اللازب (جامع البيان). ويرى طائفة من علماء اللغة أنها معربة من كلمة فارسية (سنگ وگل).. أي الحجر والطين. ولأن العرب لا ينطقون (گ) فحوّلوها إلى (ج)، فصارت سِجّيل (تفسير

ابن كثير). فالسجيل حجرٌ متكوّن من طين وأحجار صغيرة، أو متكوّن من طين صلب ويكون مسنّنًا كثير النتوءات.

قوله تعالى ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ يعني بحسب فهم العامة أنها كانت ترمي عليهم حجارة من سجيل، ولكنه يمكن أن يعني أيضا أنها كانت ترميهم على حجارة من سجيل، ذلك أن من عادة الطيور الجارحة آكلة الميتة من نسور وحدآن أن تأخذ قطعة من اللحم وتجلس على حجر وتضربها به وتأكلها.. ربما تضربها به لتليينها أو لتنظيفها.. لذا فالأصح أن الباء هنا بمعنى (على)، لا سيما وقد هلك القوم بمرض الجدري. وانتشرت جثثهم في العراء. فالمراد من الآية أن الطيور التي تأكل لحم الجيفة اجتمعت هنالك، فكانت تنهش جثثها ثم تأكل لحمها ضاربةً إياه على الصخور. والثابت من اللغة والقرآن الكريم أن الباء تأتي بمعنى (على). قال الشاعر:

أَرَبٌّ يبولُ الثُّعلبانُ برأسهِ.... لقد هانَ مَن بالت عليه الثعالبُ

وهو شعر صحابي قاله زمن شركه. لقد خرج ذات مرة في سفر آخذًا معه صنمًا له، فاحتاج إلى الماء الذي كان على مسافة قصيرة، فترك متاعه هنالك ليجلب الماء، ثم قال في نفسه مَن سيحفظ متاعي، فلعل سارقًا يسرقه، فأخرج الصنم ووضعه بجانب المتاع وتوسل إليه قائلا: أرجوك أن تحفظ متاعي في غيابي، فأنا ذاهب لجلب الماء. لقد ظنّ أنه أفضل حافظ لماله. ولما رجع وجد ثعلبًا يبول على الصنم، فكرهه كراهة شديدة ورماه بعيدًا وأنشد هذا البيت.. أي كيف يكون هذا الصنم ربًّا وهو لم يستطع أن يحمي نفسه من الثعلب الذي بال عليه؟

لقد قال هنا: (برأسه)، وهو يعني "على رأسه".

وقال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ﴾.. أي على قنطار.

وقال تعالى أيضا ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾..أي إذا مروا عليهم.

فقوله تعالى ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ يعني أن الطيور كانت ترميهم على حجارة صلبة.

التفسير: لقد رسم الله تعالى هنا صورة هلاك أصحاب الفيل. لا شك أنكم لاحظتم كيف تأكل الطيور الجارحة من نسر وحدأة وغراب وغيرها لحمَ الجيفة، إنها تأخذ قطعة من اللحم وتجلس في مكان وتضربها على حجر أو صخرة يمينا وشمالا مرة تلو مرة. وهذا هو المشهد الذي رسمه الله تعالى هنا ليبيّن أننا أهلكنا هؤلاء القوم الذين كانوا آلافا، فجاءت النسور والحدآن والغربان وغيرها من الطيور الآكلة للجيفة جماعاتٍ وأسرابًا من كل طرف وصوب، وأخذت تأكل لحوم هؤلاء القوم –الذين كانوا قادة كبارا يحرسهم الحرس كل حين، ويمشون متبخترين بملابس فاخرة– ناهشةً لحومهم بضربها على الحجارة. لا أظن أن هناك شخصا لم يرَ هذا المشهد، أما نحن فقد رأيناه مرارا، حيث تقطع الطيور لحم الجيفة وتأخذ في منقارها قطعة منه وتجلس على حجر أو لبنة وتضرب عليها قطعة اللحم ممسكةً إياها بمنقارها بقوة، مرةً من اليمين ومرة من الشمال، ولعلها تفعل ذلك من أجل تليينها أو لسبب آخر لا نعرفه. يبدو أن جنود أبرهة قد هلكوا بالجدري، فاجتمعت هذه الطيور الجارحة وأخذت تنهش جثثهم وتأخذ قطعًا منها وتأكلها ضاربة إياها على الحجارة.

وماذا حصل بعد ذلك؟ قال الله تعالى ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.. أي أنه تعالى تركهم كسنبلة القمح التي أكلت الديدان حبوبها، و لم يبق منها غير القشور. لقد أكلت النسور والحدآن والغربان لحوم جثثهم و لم يبق منها إلا العظام أو الجلود أو شعر الرأس.

هذا هو الحادث الذي بيّنه الله تعالى في هذه السورة والذي ينسجم مع الآيات كلها. لكن الأسف أن المفسرين ملأوا تفاسيرهم بقصص واهية لا أساس لها ولا

طائل منها، بدلاً من التعمق في الآيات للوصول إلى الحقيقة. ويحتار المسلم من قراءة قصصهم، ويجد الخصوم فيها فرصة للسخرية من الإسلام.